في فهم الإمام الخامنئي
رؤية قائد الثورة الاسلامية الإيرانية

كريم سجدبور

مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي

CARNEGIE ENDOWMENT

FOR INTERNATIONAL PEACE

WASHINGTON DC ▪ MOSCOW ▪ BEIJING ▪ BEIRUT ▪ BRUSSELS

2008 مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي. جميع الحقوق محفوظة.
يّمنع منعاً باتاً نسخ أيّ جزء من هذا التقرير أو نقله في أيّ شكل من الأشكال أو وسيلة من الوسائل بدون إذن خطي من مؤسسة كارنيغي.

لا تتبنى مؤسسة كارنيغي للسلام عادة مواقف مؤسسية حول قضايا السياسة العامة، ومن هنا لا تعكس الآراء المعبّر عنها هنا بالضرورة آراء المؤسسة، أو موظفيها، أو أمنائها.

للحصول على نسخ الكترونية من هذا التقرير، تفضّل بزيارة الموقع:
www.CarnegieEndowment.org/pubs
ويتوافر أيضاً عدد محدود من النسخ المطبوعة بالانكليزية، للحصول على نسخة أرسل طلباً عبر البريد الالكتروني إلى العنوان التالي: pubs@CarnegieEndowment.org

Carnegie Endowment for International Peace
1779 Massachusetts Avenue, NW
Washington, DC 20036
هاتف: 202-483-7600
فاكس: 202-483-1840
www.CarnegieEndowment.org

المحتويات

شكر..... 4
أهمية الخامنئي 5
بدايات متواضعة لقوة عظيمة 8
استلام منصب الولي الفقيه 9
مزايا الثورة 12
المناقب الثورية والسياسة الخارجية 16
التحديات أمام قيادته ومستقبل إيران ما بعد الخامنئي 28
استنتاجات وتداعيات على السياسات العامة..... 31
حول المؤلف 33
حول مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي 34

شـــكـــر

يتوجّه المؤلف بالشكر الجزيل إلى توماس كاروثرز ومحسن ميلاني ومارينا أوتاوي وجورج بركوفيتش لمـــا أبدوه من ملاحظات قيّمة. ولا بد من توجيه الشكر أيضاً إلى باحثين مساعدين في كـــارنيغي همـــا ميكايـــل غروساك وأندرو نغ لما ساهموا به من بحث وتنقيح لا غنى عنهما.

أهمية الخامنئي

قد لا يكون في العالم قائدٌ يجهله الكثيرون ومهمّ في الوقت عينه في الشؤون العالمية الراهنة بقدر آية الله السيّد علي الخامنئي، المرشد الأعلى للجمهورية الإسلامية في إيران. فالخامنئي البعيدُ من الديكتاتورية، النائي عن الديمقراطية، والجامعُ مع ذلك لبعض صفاتٍ من هذين الضدَّين، هو بلا منازع أقوى رجلٍ في نظام سلطوي تكثر فيه الفصائل. وعلى الرغم من أنه لا يتفرّد في اتخاذ القرارات الوطنية، فإن أياً من القرارات المهمة لا يمكن اتخاذه من دون موافقته. فهو يحكم البلاد بالتوافق لا بالفتوى واضعاً استمرار حكمه واستمرار النظام الثيوقراطي على رأس سلّم أولوياته.

وعلى الرغم من مضيّ عقود ثلاثة له في الحياة العامة، فإن المطّلعين على السياسة الإيرانية ما فتئوا يقدّمون آراء مختلفة حول الخامنئي. فالبعض يرى فيه، لافتقاده إلى الدعم الشعبي العارم وهيبة الزعامة والمؤهلات الدينية الرفيعة التي تمتّع بها أبُ الثورة الإسلامية وأستاذه آية الله السيد روح الله الخميني، رجلاً ضعيفاً يفتقد إلى صلابة القرار متبوئاً منصباً قوياً لا أكثر. في حين، يرى فيه آخرون حاكماً قليل الثقة بالنفس يشعر بضرورة التدخل في كل الصغائر والكبائر. ومن المطّلعين أيضاً من يصفه برجل دينٍ هرم وعليل معزول عن الواقع تتحكم بقراراته مجموعة من المستشارين .

أما العارفون الخامنئي قبل استلامه منصب المرشد الأعلى فيصرّون على أنه في قرارة نفسه شخص معتدل ولكن مرغمٌ على ارتداء قناع شخصية صارمة كي يكفيَ نفسه شرَّ رجال الدين المتشدّدين. ويستدلّون على ذلك بالإشارة إلى ولعٍ سابق له بالموسيقى والشعر وإلى ارتدائه ساعة معصم وهو سلوك غير تقليدي لرجل دين تقليدي. ومن العارفين الخامنئي أيضاً من يصفه كما يراه، أي رجل دين متديّن أيّما تديّن، صارم العقيدة، مناهض للولايات المتحدة، له سياسات ما برحت تدور في فلك الثورة الإسلامية وفكرها المناهض للامبريالية.

أما بالنسبة إلى الشعب الإيراني، الشّاب بغالبيته، بما أن ثلثي سكان البلاد هم دون الثالثة والثلاثين من العمر، فيعدّ الخامنئيُّ وجهاً من الوجوه السياسية الثابتة فهم لم يعرفوه طوال حياتهم إلاّ رئيساً (1981–1989) أو مرشداً أعلى (1989– إلى الآن). ومع أنّ صورته، بعمامته السوداء ونظاراته الكبيرة وكوفيّته الفلسطينية ولحية مهملة نال منها الشّيب، يكاد لا يخلو منها محلٌّ أو لوحةٌ إعلانية في إيران شأنها في ذلك شأن صور الحكّام والملوك في العالم العربي، وعلى الرغم من إطلالاته الدائمة على التلفاز وفي المساحة العامة، فإنه لا يولّد في نفوس الإيرانيين مشاعر جيّاشة سواءٌ لدعمه أو لنبذه. وفي حين قلّما يمدحه مادحٌ من الإيرانيين خارج الحكومة، فإنه لا يولّد ما يشعر به الكثير منهم من ازدراء حيال بعض رجال الدين السياسيين كالرئيس الأسبق علي أكبر هاشمي رفسنجاني. فبغض النظر عن بعض النواقص وعن افتقاره إلى الكاريسما، يُعتبر الخامنئي نظيف الكفّ من الناحية المالية.

وعلى الرغم من أن السلطة الدستورية للمرشد الأعلى اقوى بكثير من سلطة رئيس الجمهورية، فإن صورة الخامنئي خارج إيران لطالما كانت أقل بروزاً من صورة الرئيس الإيراني سواء عن قصد أو غير قصد. فعندما كان رفسنجاني رئيساً (1989– 1997)، اعتبرته الحكومات الأجنبية ووسائل الإعلام الدولية، دون الخامنئي، أقوى مسؤول في إيران. وبدوره، تجاوز السيد محمد خاتمي (1997–2005) الداعي إلى الإصلاح السيّد الخامنئي من اليسار بدعواته ل"حوار الحضارات"، بينما تخطاه رئيس بلدية طهران السابق محمود أحمدي نجاد (2005– إلى الآن) من اليمين بانتقاداته اللاذعة لإسرائيل ودعوته إلى إعادة النظر في مدى

الصحّة التاريخية للمحرقة اليهودية. وللملاحظة فإن البحث عن "أحمدي نجاد" على محرّك "غوغل" الالكتروني مثلاً يأتي بنتائج تفوق بأضعاف ما يأتيه البحث عن "خامنئي".

ولا ريب في أنّ ميل الخامنئي إلى البقاء بعيداً عن الأضواء وتلافي الشهرة في الداخل الإيراني ساهمت في مرونته التي تُعدّ أكثر ميزاته السياسية فعالية. علماً أن أحداً لم يتوقع منه الكثير عندما خلف الخميني مرشداً أعلى في العام 1989. وبعد انتخابات العام 1997، بدا ما حققه خاتمي من فوز كاسح أولى بشائر تمتع إيران بمزيد من الليبرالية وبدا تالياً مستقبل الخامنئي السياسي غير جليّ المعالم. غير أن تضافر العوامل الداخلية والدولية على حد سواء جعلته اليوم أقوى من أي وقت مضى.

فخارجياً، منحت أسعارُ النفط المرتفعة بشدة والمصحوبة بانتكاسات أميركية ونفوذ إيراني في العراق ولبنان وفلسطين، الجمهورية الإسلامية قوة لا سابق لها إزاء الولايات المتحدة وقدّمت تالياً للخامنئي والمتشدّدين في إيران ثقة لم يعهدوها من قبل. وفي الوقت عينه، أدّت مساعي إدارة بوش الرامية إلى "نشر الديمقراطية" والتهديد بعملية عسكرية ضد إيران – زاد احتمالَ حدوثها وجودُ عشرات آلاف الجنود الأمريكيين في بلدان مجاورة – إلى منح المتشدّدين في طهران ذريعة لقمع أي معارضة والتضييق على الحريات السياسية والاجتماعية التي كان تم تحقيقها إبّان حكم خاتمي.

أما داخلياً، فأعانت عوامل عدة الخامنئي في تكريس سلطته ومنها: (1) شبكة واسعة من المسؤولين المتمركزين في مناصب إستراتيجية على امتداد المؤسسات الرسمية والمتفانين في تعزيز سلطته؛ (2) مجلس شورى إسلامي ضعيف يسيطر عليه المحافظون ويرأسه الموالي للخامنئي الدكتور غلام علي حداد عادل (ويلاحظ أن ابنته متزوجة من ابن السيّد القائد)؛ (3) النفوذ السياسي والاقتصادي المتصاعد للحرس الثوري الذي يعّين الخامنئي مباشرةً كبارَ قادته والذي لطالما أعرب علناً عن ولائه له؛ (4) ابتعاد الشباب في إيران عن السياسة بعد خيبة عدم الوفاء بالوعود التي قُطعت في الحقبة الإصلاحية؛ (5) والأهم، انتخابات العام 2005 الرئاسية التي شهدت إلحاق هزيمة نكراء بمنافس الخامنئي الأبرز، هاشمي رفسنجاني، وفوز المقرّب من خط الخامنئي، أحمدي نجاد.

وفي حين تتسم هذه العوامل بالديناميكية – فأسعار النفط قد تنخفض، ووضع العراق قد يتحسّن، وقد يحلُّ البراغماتيون محلّ المتشدّدين في البرلمان الإيراني أو في سدة الرئاسة الإيرانية – إلا أن إيران ستبقى في المستقبل المنظور ذات تأثير كبير على بعض المصالح الأمريكية وسيبقى الخامنئي الشخصية الأقوى في إيران. ومن هنا أهمية فهم شخصية السيّد الخامنئي والتعرف الى سيرته كقائد الثورة ورؤيته لإيران.

وغالباً ما يُلاحظ الباحثون حول الشأن الإيراني عندما يراجعون أحداث الثورة عام 1979 أن المنحى الاسلامي المتشدد الذي اتّخذته الثورة لم يكن من المفترض أن يفاجئ أحداً: فالخميني لطالما أظهر رؤيته عن الحكم الإسلامي في كتاباته ومحاضراته. غير أن المشكلة كانت في قلّة من تكبّدوا عناء قراءة ما كتب.

ومنذ وفاة الخميني، صوّب متابعوا الشأن الإيراني انتباههم إلى أفراد ومجموعات ونزعات متعددة في محاولة منهم تحديد مسار البلاد: فمن العام 1989 إلى العام 1997 انصبّ التركيز على الرئيس رفنسجاني وعلى التكنوقراطيين الإسلاميين وذلك في مرحلة إعادةَ الإعمار بعد الحرب العراقية الإيرانية. ومن العام 1997 إلى العام 2005 انصبّ التركيز على الرئيس محمد خاتمي والحركة الطلابية تحت عنوان الديمقراطيةَ والمجتمع المدني. أما من العام 2005 وحتى اليوم، فانصبّ التركيز على الرئيس أحمدي نجاد والحرس الثوري تحت عنوان عودةَ التشدّد الثوري. لكن إذا كان في إيران من ثابت طوال تلك الفترات وحتى اليوم فهو الخامنئي. فقد سادت رؤيته للشأن الداخلي في إيران (إسلامية أكثر مما هي جمهورية) كما سادت رؤيته في السياسة

الخارجية (لا المواجهة ولا التسوية). فقاوم رغبة رفسنجاني في التوصل إلى تسوية مع واشنطن، كما أفشل تطلعات خاتمي نحو دولة أكثر ديمقراطية وميل أحمدي نجاد إلى المواجهة المفتوحة مع أمريكا واسرائيل. وعلى الرغم من أنه معروف بالموازن الدقيق فإنه ما برح يفضّل المحافظين على الإصلاحيين.

وعلى غرار كتابات السيّد الخميني، تعكس كتابات الخامنئي وخطاباته الصورة الأدق عن أهداف السياسة الإيرانية الداخلية والخارجية . فهي تظهر قائداً حازماً له نظرة إلى العالم تتسم بقدر ملحوظ من التماسك والثبات، وإن كانت تجنح من حين الى الآخر الى نظرية المؤامرة. وسواء كان جمهوره من طلاب إيرانيين أو أجانب رفيعي الشأن وسواء كان موضوع خطابه السياسة الخارجية أو الزراعة، فإنه نادراً ما يفوّت فرصة لذكر ما يعتبره من ثوابت ثورة العام 1979 الإسلامية – أي العدل والاستقلال والاكتفاء الذاتي والإسلام – وليعرب عن عميق ازدرائه لإسرائيل ("الكيان الصهيوني") وعن معارضته طموحات الولايات المتحدة ("الاستكبار العالمي").

واستناداً إلى هذه الفكرة القائلة بأن الخامنئي يعني ما يقوله وأن كلماته تعكس عموماً سياسات الجمهورية الإسلامية، تعدّ هذه الدراسة وصفاً لفكر السيد الخامنئي عبر مراجعة دقيقة لخطاباته وكتاباته طوال عقود ثلاثة. ومن هنا فإن فهم السياسة الإيرانية رهن بفهم فكر الخامنئي فهماً أفضل.

بدايات متواضعة لقوة عظيمة

تعدّ جذور الخامنئي المتواضعة ونشأته الدينية نموذجية للنخبة السياسية والدينية في الجمهورية الإسلامية. وقد وُلد الخامنئي في أسرة من ثمانية أولاد في العام 1939 في مدينة مشهد المقدسة في الشمال الشرقي من البلاد من أبٍ أذربيجاني الأصل وعالم دين. وغالباً ما جمّل الخامنئي طفولته المتسمة "بالعوز والتقوى" ذاكراً تناوله عشاء من "خبز وزبيب". ومن عمر الخامسة تعلّم في مدرسة الكتّاب الدينية في مدينة مشهد حيث أمضى أهم سنواته التعليمية تخلّلتها زيارات إلى الحوزات الدينية العلمية في النجف الأشرف وقمّ المقدسة. ويعتبر الخامنئي أنه كان طالباً بارعاً لكنه أُرغم على تقصير دراسته الحوزوية في قمّ للعودة إلى مشهد والاعتناء بوالده الذي أعياه المرض وهو ما يعدّ تبريراً لعدم تحقيقه المستوى العلمي الذي بلغه سلفه آية الله الخميني.

وفي الواقع كان للخامنئي مثالين أعليين. فهو يتذكر دخوله معترك السياسية و"ساحة الجهاد" في عمر صغير واستلهامه من رجل دين متشدد اسمه نواب صفوي، وهو ناقد لاذع لحكم الشاه والقوى الامبريالية على حد سواء. وقد كان الصفوي من أوائل الدعاة إلى الثورة الإسلامية والحكم الإسلامي وقد جرى ربطه بشكل مباشر أو غير مباشر بمقتل عدد من المثقفين العلمانيين والمسؤولين الحكوميين. وأعدمته حكومة الشاه في العام 1955.

وبعد عدة سنوات، وإبّان دراسته في قمّ المقدسة في العشرين من العمر، صار الخامنئي تحت وصاية الامام الخميني الذي بات أستاذه السياسي طوال حياته. وفي ذلك الوقت، لم يكن الخميني معروفاً جداً في إيران، غير أن وقوفه في وجه الشاه وتحديه له جعلاه مشهوراً في أوساط الحوزويين الشباب. وقد خلّفت هذه التجربة بالغ الأثر في نفس الخامنئي، وعندما نفى الشاه الخميني إلى العراق في العام 1963، ظلّ الخامنئي طالباً من بين طلاب أوفياء كثر في إيران راحوا ينشرون تعاليم أستاذهم غير التقليدية حول الحكم الإسلامي.

وإبان هذه الفترة، أنشأ الخامنئي أيضاً روابط وثيقة مع رجال دين يشاطرونه الفكر الثوري عينه وشغلوا، مثله، مناصب رفيعة في حكومة الجمهورية الإسلامية من بينهم رفسنجاني ورجل الدين المتشدّد البارز آية الله مصباح يزدي. وعلى غرار كُثر من النخبة السياسية الحالية في الجمهورية الإسلامية، تعرّض الخامنئي للاعتقال مرات ست على يد شرطة الشاه السرية المعروفة بالسافاك إبان الستينيات والسبعينيات بسبب أنشطته السياسية.

ولقد أمضى الخامنئي سنوات عدة في الاعتقال وعانى التعذيب والسجن الانفرادي ونُفي في آخر مرحلة إلى منطقة نائية من البلاد (سيستان- بالوشيستان) إلى حين اندلاع الثورة الإسلامية في العام 1979. ويرجّح من يعرف الخامنئي أن جذور عدائه لإسرائيل والولايات المتحدة إنما ترقى إلى هذه الفترة بما أنه تعرّض للتعذيب على يد شرطة السافاك المعروف عنها تلقيها التدريب من وكالة الاستخبارات المركزية الامريكية والموساد الاسرائيلي.

قطف ثمار الثورة

لقد أثمرت معارضة الخامنئي الشرسة للشاه وولاؤه للخميني في نهاية المطاف. فعندما سقط النظام البهلوي وانتصرت رؤية الخميني لإيران ، كلّف آية الله الخميني السيّد الخامنئي بشغل مناصب عدة مهمة في الحكومة الثورية الحديثة النشأة. فتبوأ منصب وزير الدفاع لفترة وجيزة في العام 1980 ومن ثم منصب المشرف على

قوات حرس الثورة بعد اندلاع الحرب العراقية الإيرانية. وبسبب مهارته الخطابية، استلم منصباً مهماً هو إمام جمعة طهران.

وجاء العام 1981 حاملاً معه أحداثاً تاريخية للخامنئي، ففي حزيران منه نجا الخامنئي من محاولة اغتيال قامت بها مجموعة المعارضة المتشددة "مجاهدي خلق" عندما انفجرت عبوة مخبأة في مسجّل صوتي في مؤتمر صحفي له. وقد خسر الخامنئي قدرته على تحريك يده اليمنى وما زال حتى الساعة يعاني الألم من الجراح التي ما برحت تلازمه. وبعد عدة أشهر، وجهت منظمة مجاهدي خلق ضربة أخرى تمثّلت بتفجير كبير أودى بحياة أكثر من 100 مسؤول إيراني رفيع المستوى بمن فيهم الرئيس محمد علي رجائي.

وشكلّت الجلبة التي أثارتها الحادثة فرصة للخامنئي البالغ آنذاك الثاني والاربعين من العمر، فبعيد مقتل رجائي طلبت النخب الثورية منه الترشح للرئاسة. وعلى الرغم من أن السلطة الدستورية للرئيس كانت ضئيلة في ذلك الوقت، فإن الخامنئي اعتذر عن الترشح شارحاً أن تردي صحته يحول دون قدرته على اداء دور الرئاسة كما يجب. وما كان منهم إلا أن أجابوه بالقول[1]: "لهذا السبب نحن نعرض عليك هذا المنصب". وبدعم من الخميني فاز الخامنئي بدورتين من الانتخابات الرئاسية غير التنافسية فوزاً ساحقاً فكان أول رجل دين يتبوأ منصب الرئاسة في إيران، وتبوّأ المنصب من العام 1981 وحتى رحيل الإمام الخميني في العام 1989.

ولقد حدّدت كلمة الخامنئي الافتتاحية التي تعهد فيها بالقضاء على "الانحراف والليبرالية واليساريين الخاضعين لنفوذ الأمريكيين" الإطار الخطابي العام لرئاسته. وارتضى الخامنئي لنفسه أن يؤدي دور النائب المؤتمن عن السيّد الخميني ناقلاً نظرة أستاذه إلى العالم في الداخل وفي زياراته إلى الخارج على حدّ سواء. كما لعب الخامنئي دوراً ثانوياً في رسم معالم سياسات إيران الداخلية وإستراتيجيات الحرب الى جانب رئيس الوزراء آنذاك مير حسين الموسوي (علماً أن منصب رئاسة الوزراء ألغي في العام 1989)، ورئيس البرلمان رفسنجاني وقائد قوات الحرس الثوري محسن رضائي. وعلى الرغم من أنهم جميعاً اليوم أقل منه نفوذاً، فلم يكن ظاهراً آنذاك على أنه قد يصبح ذات يوم الشخصية الأقوى في البلاد.

استلام منصب الولي الفقيه

"أنا فردٌ كثير العيوب والنواقص ولست سوى عالم دين متواضع"
من كلمة الخامنئي الافتتاحية كقائد الثورة في حزيران من العام 1989

يعد فهم سبب وكيفية استلام الخامنئي منصب ولاية الفقيه ضرورياً لفهم أسلوب قيادته. ففي حين دعا دستور الجمهورية الإسلامية إلى أن يكون الولي الفقيه محصّلاً مرتبة آية الله العظمى، أدى خلاف الخميني مع الشخص الوحيد المحدّد لخلافته آية الله منتظري إلى معمعة في أوساط النخب الثورية: فهل يمكنهم إيجاد شخص يتمتع بخبرة إدارية بيروقراطية ويكون في الوقت عينه عالم دين رفيع المستوى ومرموق ومنخرط في المعترك السياسي ويشاطر الخميني في رؤيته عن الحكم الإسلامي؟

وانطلاقاً من عدم رضاه عن مستوى كبار العلماء قام الخميني في نيسان من العام 1989 أي قبل ثلاثة أشهر من وفاته بتغيير الدستور بشكل يسمح للولي الفقيه بأن يكون مجرّد خبير في الفقه الإسلامي ومالكاً "المهارات

[1] محسن ميلاني، "تطوّر الرئاسة الإيرانية: من بني صدر إلى رفسنجاني"، الصحيفة البريطانية للدراسات الشرق أوسطية، ج. 20، رقم 1، 1993.

السياسية والإدارية المناسبة". وقد شرح الخامنئي الذي لم يكن يعرف في ذلك الوقت أنه سيصبح قريباً الولي الفقيه ما قام به الخميني بالإشارة إلى أن شرعية الخميني لم تتأتّ عن كونه آية الله بل عن سمعته كقائد سياسي شجاع وخبير في الفقه الإسلامي.[2] وقد أكّد رفسنجاني الذي كان وقتئذ رئيساً للبرلمان هذا القول موضحاً أنه مع مرور الوقت اللازم لنيل أي رجل دين مرتبة آية الله العظمى يكون قد شاخ وافتقر تالياً إلى الطاقة اللازمة لإدارة البلاد.[3]

وبالفعل، غالباً ما ينسب فضل استلام الخامنئي منصب ولاية الفقيه إلى رفسنجاني العامل وراء الكواليس بغية تنصيب صديقه القديم وحليفه قائداً وهو تنصيب يدّعي رفسنجاني أنه كان أمنية الخميني وهو على فراش الموت. وبعيد وفاة الخميني في حزيران من العام 1989، وافق مجلس الخبراء وهو الهيئة الدينية المخولة دستورياً تنصيب الولي الفقيه وتنحيته من منصبه على الخامنئي خلفاً للخميني بعد أن نال دعم 60 ومعارضة 14 عضواً.

وفي حين لم يخف على أحد محدودية مقومات الخامنئي الدينية ولم يفت أحداً الملاحظة أن القرار أثار سخط النخبة الدينية الإيرانية في قمّ المقدسة، احتشدت النخب السياسية في الجمهورية الإسلامية وراء الخامنئي. وأعلن رئيس مجلس الخبراء آية الله مشكيني أن اختيار الخامنئي استند إلى قربه من الخميني وأدائه دوراً مهماً في كل من الثورة والحرب العراقية وإلى معرفته الواسعة "بالمشاكل المعاصرة التي تواجه العالم الإسلامي"[4]. من جهته، كتب السيّد أحمد نجل الإمام الخميني الذي كان يعدّ يوماً خلفاً محتملاً لوالده إلى السيّد الخامنئي قائلاً إن "الإمام الخميني كان يعتبرك القائد الأكثر كفاءة للجمهورية الإسلامية". وهكذا تم ترفيع الخامنئي بين ليلة وضحاها من منصب حجة الإسلام، المشير إلى طبقة دينية متواضعة، إلى منصب آية الله المرموق.

والحق أن كلمة الخامنئي الافتتاحية في منصب الولي الفقيه ملفتة. فهو خصّص الغالبية العظمى منها لمدح الخميني وطمأنة المستمعين إلى أنه عازم كلّ العزم على السير على "نهج الإمام" ومعلناً حتى أنه لطالما سأل الله أن يتوفاه قبل أستاذه. أما المرة الوحيدة التي يشير فيها إلى نفسه كالولي الفقيه الجديد فتُظهر بشكل مفاجئ مدى تواضعه:

"أنا فردٌ كثير العيوب والنواقص ولست سوى عالم دين متواضع. غير أن مسؤولية ألقيت على كاهلي وأنا لن أوفر أي قدرة من قدراتي ولا أي قطرة من إيماني بالله عزّ وجلّ كي أتمكن من حمل هذه المسؤولية الكبرى".[5]

وانطلاقاً من معرفته التامة أنه يفتقر إلى احترام كبار علماء الدين في البلاد وإلى شعبية الخميني على حدّ سواء، تحرّك الخامنئي بداية ببطء وحذر لتعزيز موقعه. فأكّد للنخب السياسية والدينية في النظام عدم نيته تغيير الوضع القائم لكنه عمد بدهاء إلى بناء ما افتقر إليه كرئيس أي قاعدة مستقلة من الدعم وشبكة شخصية تكون بمثابة "عينيه وأذنيه".

---

[2] محسن ميلاني، "انتقال السلطة في إيران الثورة"، دراسات إيرانية، صيف/خريف 1993.

[3] ميلاني، "انتقال السلطة".

[4] كيهان، 19 حزيران 1989.

[5] كلمة بثّت عبر التلفزيون الإيراني في 6 حزيران 1989.

وبدأ بصمت بتشكيل هذه الشبكة من "المسؤولين الدينيين" المقدّر عديدها بعدة آلاف والشاغل أفرادها مناصب إستراتيجية في كل وزارة أو مؤسسة للدولة بما في ذلك المؤسسة الدينية والجيش. واليوم يشكّل هؤلاء الممثلين شبكة متنوعة تمتد على طول البلاد وتتمتع بمدى دولي مخصصة لتعزيز سلطة الخامنئي وأفرادها أقوى من غيرهم من المسؤولين الحكوميين لأنهم مخوّلون للتدخل في أي قضية من قضايا الدولة.[6]

في الوقت عينه دخلت الجمهورية الإسلامية عقب وفاة الخميني مرحلة مهمة من التغييرات. ففي حين بقيت اهداف تكريس الثورة ومأسساتها وتصديرها قضايا بالغة الأهمية، برزت الحاجة القصوى إلى إعادة إعمار البلاد بعد الحرب مع العراق وإعادة تحريك عجلة الاقتصاد. وتولى الرئيس رفسنجاني زمام المبادرة في هذه القضايا ما أدى تالياً إلى خروج إيران من العزلة الدبلوماسية. ولم يتغير خطاب الخامنئي فبقي صارماً وثورياً لكنه دعم إلى حد كبير جهود رفسنجاني الرامية إلى تحسين علاقة إيران بجيرانها العرب وبأوروبا. ولكنه ظلّ متشدداً في موضوع العلاقات مع الولايات المتحدة.

قوة القائد

كقائد الثورة، ليس من نظير لسلطة الخامنئي الدستورية. فهو يسيطر على كل ما هو أساسي في البلاد على غرار المحاكم والقوات العسكرية ووسائل الإعلام عبر تعيين رؤساء الهيئة القضائية والإذاعة والتلفزيون الحكوميين والقوات المسلحة النظامية وقوات الحرس الثوري. كما يتمتع الخامنئي بسيطرة فعالة على ثاني أقوى مؤسسة في إيران هي مجلس أوصياء الدستور المؤلف من 12 عضواً (كلهم يعينهم الخامنئي بشكل مباشر أو غير مباشر) والمخوّل النظر في المرشحين للانتخابات والمتمتع بحق نقض قرارات البرلمان. كذلك، تعود قوة الخامنئي إلى حد كبير إلى الموارد الاقتصادية غير الشفافة والضخمة التي تسيطر عليها الدولة. فالاقتصاد الإيراني تسيطر عليه الدولة إلى حد كبير وللخامنئي أكثر من غيره الكلمة في تحديد كيفية إنفاق إيرادات النفط الإيرانية. وهو له أيضاً الكلمة الفصل في المؤسسات الخيرية في البلاد التي لها أصول بمليارات الدولارات هذا بالإضافة إلى ملايين أخرى من الدولارات التي يستقبلها مكتبه كتبرعات خيرية للعتبات المقدسة في إيران.

ويروق للخامنئي أن يعكس صورة الجدّ المتسامح الكريم المجرّد من الأنانية المترفع عن الخلافات لقيادة البلاد باتجاه الفضيلة:

إن المهمة الأساس للولي الفقيه هي حفظ النظام والثورة الإسلاميين. وصحيح أن إدارة شؤون البلاد مُنحت لمسؤولين تنفيذيين في الحكومة لكن من واجب الولي الإشراف على أداء الهيئات الحكومية المختلفة وضمان عملها بما يتناغم مع التعاليم الإسلامية ومبادئ الثورة.[7]

وفي الواقع يعرف عن الخامنئي عدم السماح لأحد بانتقاده، فانتقاد الولي الفقيه ما برح أحد الخطوط الحمر القليلة في السياسة الإيرانية، بل عقوبته شبه مضمونة بالسجن. وليست عائلة الخامنئي بالمعفية من هذه

---

[6] ويلفريد بوشتا، "من يحكم إيران"، معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، 2000.

[7] خطاب بعنوان "الإصلاحات والإستراتيجيات والتحديات".

المسألة، فضربت قوّات "الباسيج" الموالية للولي الفقيه أخاه الأصغر رجل الدين الإصلاحي هادي الخامنئي ضرباً مبرحاً بعد إلقائه خطبة انتقد فيها سلطات الولي الفقيه.
و بدأت مؤخرا الأسئلة تطرح حول الديناميكية الموجودة بين الخامنئي والحرس الثوري. فالعلاقة بينهما ما برحت تصير متبادلة المنفعة يستفيد منها الولي سياسياً والحرس اقتصادياً. فهو قائد قواتهم ويعيّن كبار قادتهم وهم في المقابل يقدمون له الولاء والدعم ويتمتعون بنفوذ أوسع في صنع القرار السياسي والنشاط الاقتصادي.

مزايا الثورة

بالنسبة إلى الخامنئي، عنت ثورة العام 1979 تخليص السياسة الإيرانية من شرّين هما الشاه والولايات المتحدة، وإنشاء حكم ديني مطبوع بأربع قيم أساسية هي: العدل والاستقلال والاكتفاء الذاتي والتقوى الإسلامية. وفي حين وُضعت هذه القيم الثورية رداً على ظروف سياسية إبان حكم الشاه في الستينيات والسبعينيات، فإنها ما برحت تسيطر على خطاب الخامنئي السياسي وهو يربط بينهما بسهولة: فالإسلام يجسّد العدل والاستقلال يقتضي الاكتفاء الذاتي والقوى الأجنبية معادية لإيران إسلامية مستقلة.

الإسلام والعدل

بالنسبة إلى الخامنئي، يعدّ الإسلام والعدل وجهين لعملة واحدة وأهم مكونين للمجتمع والحكم والسياسة الخارجية في إيران. وهو يشير إلى العدل باعتباره "الشعار الأساس والهدف السامي للثورة الإسلامية وجمهوريتنا الإسلامية"، وعلى غرار سلفه الخميني، فإنه يرى الإسلام أساساً اجتماعياً وسياسياً شاملاً.[8] وتتمثل رؤيته لإيران "عادلة" بوضع انظمة اجتماعية وتشريعية تعكس القيم الإسلامية بالإضافة إلى اقتصاد قائم على المساواة يعمل على القضاء على التفاوت الطبقي.
وخلافاً للرئيسين السابقين خاتمي ورفسنجاني اللذين دعيا إلى مقاربة أقل تشدداً للحكم الإسلامي، يرى الخامنئي عقيدة إيران الإسلامية مصدراً لقوتها واستمرار سلطتها بدلاً من اعتبارها مصدر ضعف. وما نتيجة الانتخابات الرئاسية في العام 2005 وفوز أحمدي نجاد الذي تفوق بتديّنه الشخصي وأجندته الداعية إلى العدل الاقتصادي على غيره من الدعاة إلى التحرر السياسي والاجتماعي إلا تعزيز لهذه النظرة.
وفي الواقع تُترجم رؤية الخامنئي حول مجتمع إسلامي عادل إلى نوع من الاشتراكية الدينية. فهو يشير إلى أن نجاح الحكم الإسلامي في إيران إنما يعزا إلى معاملة الأفراد بالتساوي ومن دون تمييز في حين يعود فشل الحكومات الغربية الليبرالية إلى أن الرأسمالية والمصلحة الذاتية تحرم الملايين من العدل سواء في داخل الدول الغربية نفسها أو في الدول الخاضعة للهيمنة الغربية:
"لا يوافق الإسلام على النموذج الغربي للتنمية الاقتصادية الذي يؤدي إلى النمو الاقتصادي ويزيد ثروة شرائح معينة من المجتمع على حساب إفقار طبقات اجتماعية أخرى وتخفيض مستويات معيشتها. فالإسلام إنما يسعى

[8] كلمة عند افتتاح رئاسة أحمدي نجاد، 3 آب 2005.

إلى التنمية الاقتصادية والازدهار الاقتصادي الذي يطال الطبقات الاجتماعية كافة استناداً إلى العدل الاجتماعي."[9]

وعلى الرغم من أن الخامنئي دعم الإصلاحات الاقتصادية على غرار الخصخصة فإن طريقة إيران الرئيسة المعتمدة لتأمين العدل الاجتماعي والتنمية الاقتصادية تبقى ما تقدمه الدولة من مساعدات ضخمة (أكثر من 20 مليار دولار سنوياً) للمواد الأولية الغذائية والاحتياجات اليومية على غرار النفط والكاز. بيد أن الخامنئي يميّز بين العدل الاجتماعي الإسلامي الإيراني والاشتراكية السوفييتية والأوروبية الشرقية "غير الدينية". وهو ينفي أي تشابه بين تراجع الزخم الأيديولوجي الذي تشهده إيران اليوم وبين الأيديولوجيات المفلسة التي عرفتها دول المعسكر السوفييتي في أواخر الثمانينيات. وفي سياق توضيح الفرق بين إيران والاتحاد السوفييتي يشرح الخامنئي:

"الإسلام ليس الماركسية. فالشيوعية أو الماركسية لم تكن عقيدة عامة الناس في الاتحاد السوفييتي بل كانت عبارة عن أيديولوجيا الحزب الشيوعي لا أكثر علماً أن هذا الحزب كان يضم زهاء 10 أو 15 مليون عضو في حين كان يبلغ عدد السكان في البلاد حوالى 300 مليون نسمة. وحتى بالنسبة إلى الأعضاء في الحزب، كانت الامتيازات التي تمتعوا بها أهم من أيديولوجيتهم. أما الإسلام فدين الشعب والشعب يحبه. وفي سبيل هذا الدين لا غيره أرسل الشعب الإيراني الملتزم أبناءه الأعزاء إلى جبهات القتال ولم يعلنوا الحداد عندما نال أبناؤهم شرف الشهادة بل حمدوا الله عزّ وجلّ."[10]

وفي حين يؤمّن الإسلام أساس العدل، يعتقد الخامنئي أن خير وسيلة للتشجيع على التدين هي في ربطه بالعدل. وفي محاضرة له أمام جمع من الكهنة المسيحيين القادمين من أوروبا لزيارة إيران، يشرح كيفية استقطاب الجمهورية الإسلامية لمؤيديها، فيقول:

"للشباب ميل طبيعي للدين والروحانية لكن علينا أيضاً أن نحاول استقطابهم أكثر. فأنا، كرجل دين، تعلمت بحكم التجربة أن هناك سبل تزيد من جاذبية الدين للشباب وسأشارككم هذه التجربة. فأنا أعتقد أنه كلما دافع الدين عن المستضعفين ودعا إلى العدل كلما زادت جاذبيته للشباب بما أن الشباب في كل مكان من العالم يدعمون الحركات الهادفة إلى إحقاق العدل. وفي الواقع، يعد العدل جزءاً من جميع الأديان وقد كانت الشخصيات البارزة في تاريخ البشرية التي بذلت جهوداً حثيثة لإحقاق العدل بغالبيتها شخصيات دينية. فنبيكم عيسى كافح من أجل العدل طوال حياته ونبينا أيضاً أمضى حياته بالكامل محاولاً إحقاق الحق... وإذا ما أثار رجال الدين المسيحيون والمسلمون موضوع العدل اليوم فإن هذا الموضوع سيجذب حتماً الانتباه."[11]

---

[9] كلمة أمام ضيوف إيرانيين وأجانب، 2 حزيران 1999.

[10] "الإصلاحات والإستراتيجيات والتحديات"، 10 تموز 2000.

[11] بيان الولي الفقيه في اجتماع مع أسقف النمسا، 22 شباط 2001.

والملفت أنه على الرغم من أن الخامنئي يتطرق إلى قوة الإسلام وشعبيته كقوة اجتماعية وسياسية، فإنه يبدو في الوقت عينه مدركاً لتراجع سمعة رجال الدين في إيران المعاصرة. فهو خاطب ذات مرة مجموعة من صانعي الأفلام بالقول:

"إن تأثيركم يفوق بأشواط تأثير رجل الدين أو الداعية أو الكاتب. وإن قلت أن تأثيركم هو عشر أضعاف تأثيرهم فهو حتماً أكثر. من هنا يمكنكم معرفة الفرق الشاسع بين تأثير فيلم منتج بشكل جيد وتأثير كلام الخطباء!"[12]

وبالنسبة إلى الخامنئي تعد الجمهورية الإسلامية في إيران حاملة لواء الحكم العادل نظراً إلى سعيها إلى تحقيق "سياسات يقودها العدل" على غرار معارضتها الولايات المتحدة وإسرائيل على الرغم من الأثمان السياسية والاقتصادية المتأتية عن ذلك (العقوبات والعزلة). فعلى ما قال الخميني يوماً: "إن إيران تفضّل الهزيمة على نصر قد يتحقق عبر الجور والقمع".[13]

الاستقلال والاكتفاء الذاتي

من وجهة نظر الخامنئي، رمت الثورة الإسلامية في العام 1979 إلى القضاء على النفوذ الأجنبي في إيران بقدر ما هدفت إلى نشر العدل الإسلامي نظراً إلى أنه لا يمكن تحقيق العدل من دون القضاء على النفوذ الأجنبي. وعلى الرغم من أن الاقتصاد الإيراني المغلق بعد ثلاثة عقود على الثورة عانى الأمرين بينما شهدت دول مجاورة لإيران على غرار دبي وتركيا ازدهاراً اقتصادياً مردّه انضمام هذه الدول إلى ركب العولمة والتجارة الحرّة والاستثمار الأجنبي والأسواق المفتوحة، فإن الخامنئي ما انفك يتحدّث عن رؤيته لإيران تتمتع باكتفاء ذاتي يسمح لها بالاستقلال الاقتصادي وباستقلال اقتصادي يسمح لها بالاستقلال السياسي. ومن المواضيع المكرّرة في خطابات الخامنئي هي العلاقة غير المتوقعة التي تربط التقدم العلمي بالاكتفاء الذاتي والاستقلال السياسي. فرؤيته لإيران تتمثل بتمتع الجمهورية الإسلامية بتقدم علمي وتكنولوجي يسمح لها بتحقيق الاكتفاء الذاتي، ومن ثم باكتفاء ذاتي يسمح لإيران بالاستقلال الاقتصادي فاستقلال اقتصادي يتيح لها الاستقلال السياسي. علماً أن الخامنئي كان ينتقد نظام الشاه بشكل رئيس لاعتماده على الغرب لاسيما الولايات المتحدة في مجال الموارد البشرية والخبرة الفنية. وبحسب ما ورد على لسانه فإن "الدول الاستعمارية تعي تماماً أنها كي تتمكن من الحفاظ على سيطرتها السياسية والاقتصادية على بلد ما، عليها عرقلة التقدم العلمي فيه".[14]

وفي هذا السياق أكّد الخامنئي أن العقوبات الأمريكية والأوروبية على إيران ليست غير فعالة في تغيير سلوك إيران فحسب بل إنها في الواقع مفيدة لأنها ترغم إيران على الاعتماد على نفسها أكثر:

"عندما فرضت تلك الدول عقوبات على الجمهورية الإسلامية، أعرب الإمام الخميني الراحل عن سعادته في هذا الصدد ورحب بالخطوة. وقد كان لردة فعل الإمام معنى بالغاً بما أنه بسبب هذه العقوبات لجأ الشعب

---

[12] كلمة أمام مخرجين سينمائيين، 13 حزيران 2006.

[13] خطاب في مولد الإمام الحسين، 21 أيلول 2002.

[14] كلمة لأساتذة الجامعات والنخب الأكاديمية، 13 تشرين الأول 2005.

الإيراني إلى موارده الخاصة ووقف على قدميه... واليوم أيضاً تهدد تلك الدول بفرض العقوبات على الجمهورية الإسلامية. والوضع ما زال كما كان والعقوبات لن يكون لها أثر سلبي على بلادنا وأمتنا."[15]

وفي أحيان أخرى يتحدّث الخامنئي بصراحة أكبر عن ثمن الخيارات السياسية الإيرانية لكنه يشير إلى أن ثمن تحقيق إيران استقلالها يستحق تكبّده:
"بغية تحقيق الاستقلال والسيادة والوطنية والشرف، يتعين على كل أمة دفع ثمن معيّن. لكن على الأمم تكبّد هذه التكلفة وبذل قصارى جهدها لتحقيق الأهداف الآنفة الذكر. وعليها أن تتأمل خيراً في النتائج القيمة لأعمالها على الرغم من جميع المحاولات التي يقوم بها الأعداء للقضاء على آمالها وتطلعاتها."[16]

انتخاب أحمدي نجاد

يحاول الخامنئي أن يعكس نوعاً من الحياد إزاء اللاعبين على ساحة السياسة الإيرانية فهو أعلن مرة أن وجود المحافظين والإصلاحيين على حد سواء ضروري لنجاح الجمهورية الإسلامية وانهما بمثابة جناحي الثورة. غير أن قراءة دقيقة لخطاباته في الأشهر التي سبقت الانتخابات الرئاسية في العام 2005 توضح أن خياره كان واقعاً على أحمدي نجاد. وفي حين سبّب فوز رئيس بلدية طهران المتشدد صدمة لأشدّ المتابعين والمراقبين للسياسة الإيرانية ، كانت هناك دلالات واضحة على أن الخامنئي (بمساعدة ابنه مُجتبى) كان يروّج له.
فأحمدي نجاد المهندس المتديّن المرشّح على أساس أجندة تدعو إلى التقوى والعدل الاقتصادي جسّد المُثل الثورية التي أرادها الخامنئي في المرشح للرئاسة. ومن هنا وصف الخامنئي في كلمة مهمة سبقت الانتخابات بأسابيع قليلة مرشحه النموذجي بكلمات تبدو دعماً لأحمدي نجاد وانتقاداً لمنافسه الأساسي رفسنجاني:
" أنا شخصياً أود لو يُنتخب رئيس هدفه الأساسي خدمة الشعب... رئيس وفيّ لمُثل ثورتنا ونظامنا الإسلامي وهادف حقاً إلى إحقاق الحق ومكافحة الفساد. أنا أسأل الله عزّ وجلّ أن يرشد شعبنا كي يصوّت لمرشح رئاسي فيه هذه الصفات... وأنا أؤكد لكم أنه إذا ما تم انتخاب مرشح ديناميكي كفؤ متفانٍ في خدمة الشعب يضع على رأس أولوياته إحقاق العدل الاجتماعي واستئصال التمييز والفساد من المجتمع ، فإن العديد من المشاكل التي تواجه أمتنا حالياً على الجبهتين الداخلية والدولية ستنحل."[17]

ومن بين المرشحين الثمانية للسباق الرئاسي وحده أحمدي نجاد كانت له خلفية مرتبطة بالهندسة (حائز دكتوراه في هندسة المرور)، وفي أحد الخطابات السابقة للانتخابات أعلن الخامنئي:
"لطالما درس أكثر طلابنا موهبة في كلياتنا التقنية... وعلى ما أذكر فإن أذكى الطلاب وأكثرهم ديناميكية لطالما كانوا يقبلون للالتحاق بكليات الهندسة المختلفة وغيرها من مراكز التعليم العالي الشبيهة بها."[18]

---

[15] خطاب أمام أهل قم، 9 كانون الثاني 2006.
[16] كلمة أمام جنود سلاح الجو، 7 شباط 2006.
[17] كلمة الولي الفقيه لأهل كرمان، 1 أيار 2005.
[18] كلمة الولي الفقيه أمام عوائل الشهداء والأسرى والجرحى، 25 أيار 2005.

وحتى مؤخراً، لم يتوان الخامنئي عن التصريح بدعمه لأحمدي نجاد على الرغم من صورته المتطربة دولياً والضغط السياسي والاقتصادي الذي سببته أفعاله منذ انتخابه. وقد دافع عنه الخامنئي علناً كما لم يدافع قط عن خاتمي فقال:

"إن شعارات الحكومة الجديدة وخططها والعلاقة الودية بين الرئيس محمود أحمدي نجاد والشعب رفعت معنويات العامة وملأت قلوب الإيرانيين بالأمل والتفاؤل. واليوم قلّت شكاوى الشعب الإيراني من أداء الدوائر الحكومية المختلفة لا لأن جميع المشاكل حُلّت بل لأن الشعب يشعر الآن بمزيد من الأمل كونه يرى أن الأمور تسير نحو الأفضل في ميادين مختلفة."[19]

وعلى الرغم من أن الخامنئي امتنع مؤخراً عن تأييد أداء أحمدي نجاد علناً، فإن أحمدي نجاد يبقى بأشكال عدة الرئيس المثالي بالنسبة إلى الخامنئي. فهو يكنّ احتراماً للخامنئ ولمنصبه ويجعل السيّد القائد يبدو صوتاً معتدلاً في الجمهورية. والأهم أن تزايد عدم الرضا السياسي والشعبي المحيط بأحمدي نجاد يعود لمصلحة خامنئي ويعزز نفوذه.

المناقب الثورية والسياسة الخارجية

بين المثل الثورية التي يرددها الخامنئي وممارسات السياسة الخارجية الإيرانية فرق شاسع يدفع العديد من مراقبي إيران إلى التساؤل حول إذا ما كانت السياسة الخارجية للجمهورية الإسلامية تحركها العقيدة بشكل أساسي أم المصالح الوطنية المحسوبة. والحق أنه يمكن تقديم حجج تدعم كلا الفكرتين. فعلى الرغم من ذكر العدل والتضامن الإسلامي والاستقلال في الدفاع عن القضية الفلسطينية يتم تجاهل قضية الشيشان خوفاً من إثارة غضب روسيا. وعلى الرغم من ذكر الوحدة الإسلامية في دعم حماس وحزب الله فإن إيران دعمت أرمينيا المسيحية في حربها ضد أذربيجان المسلمة الشيعية. وعلى الرغم من أن إيران تدين الولايات المتحدة "لعدم إيمانها بالله" وقيمها الاجتماعية المنحطة فإنها تنشئ تحالفات وثيقة مع حكومات اشتراكية في فنزويلا وكوبا.

وكمرشد أعلى للجمهورية، مال الخامنئي إلى اعتماد مواقف الخميني عينها من السياسة الخارجية بدلاً من الانفصال عن الماضي وإطلاق مقارباته الخاصة. وعلى الرغم من أنه أتاح المجال في بعض الحالات لآخرين لإطلاق سياسات بديلة على غرار تقرّب رفسنجاني من السعودية (التي وصفها الإمام الخميني "بالشر") وتحسين خاتمي لعلاقات إيران مع أوروبا، فإن الخامنئي رفض عكس المسار المتعلق بركيزتين أساسيتين من ركائز الثورة في التعاطي مع السياسة الخارجية هما العداء والمعارضة للولايات المتحدة وإسرائيل.

وفي حين تطورت السياسة الخارجية الإيرانية بشكل ملحوظ منذ الأيام الأولى للثورة، تبقى البنية الأيديولوجية للجمهورية الإسلامية قائمة على ركائز ثلاث مهمة هي: الحجاب الإلزامي للنساء والمعارضة للولايات المتحدة وإسرائيل. ومن شأن تغيير هذه السياسات التشكيك بشكل جدي في أساس النظام الإسلامي والخلط بين عقيدة النظام ومصالحه.

---

[19] خطاب الولي الفقيه لكبار الحكام، 27 شباط 2006.

الخوف من الولايات المتحدة وبغضها

"إن ما تتوقعه الولايات المتحدة التي ما برحت تقود الاعتداء على جمهوريتنا الإسلامية من أمتنا وحكومتنا هو الخضوع والاستسلام إلى هيمنتها وهذا هو الحافز الحقيقي للمزاعم الأمريكية المتعلقة بأسلحة الدمار الشامل وحقوق الإنسان والديمقراطية.
في كلمة أمام طلاب جامعة شهيد بهشتي في أيار من العام 2003

اتسم ازدراء الخامنئي للولايات المتحدة بالاتساق والديمومة. فطوال ثلاثة عقود من الخطابات أولاً كرئيس ومن ثم كولي فقيه نادراً ما تكلم الخامنئي – على الأقل علناً – بأي ايجابية عن الولايات المتحدة أو عن امكانات استعادة العلاقات مع الحكومة الأمريكية. بل على العكس، فسواء كان موضوع الكلام السياسة الخارجية أو الزراعة أو التعليم يجد الخامنئي دوماً سبيلاً لربط الموضوع الأساسي بجشع "الاستكبار العالمي" وقسوته ومؤامراته.

ولا ريب في أن العلاقات الأمريكية الإيرانية ازدادت خصومة إبان حكم إدارة بوش ففي مقابل ادراج إيران في "محور الشر"، بدأ الخامنئي بالإشارة إلى الولايات المتحدة باعتبارها "تجسيداً للشيطان". غير أن عداء الخامنئي للولايات المتحدة كان واضحاً منذ بداية الثورة. وتعود أسباب هذا العداء إلى عوامل تاريخية ومعاصرة عدة، أهمها دعم الولايات المتحدة لحكم الشاه وإسرائيل وصدام حسين إبان الحرب العراقية الإيرانية، ورفضها الاعتراف بالجمهورية الإسلامية وتدخلها في الشؤون الداخلية الإيرانية والوجود العسكري الأمريكي في الخليج الفارسي ورغبة الولايات المتحدة المفترضة في الهيمنة العالمية.
وفي حين يعترف المقربون من الخامنئي بلا استثناء بأنه لا يثق مطلقاً بالنوايا الأمريكية، فإنهم يقدمون آراء مختلفة حول مدى انفتاحه للتقرب من واشنطن. ففي حين يؤكد البعض أن معارضته للولايات المتحدة قائمة ببساطة على معارضة أيديولوجية تستند إلى قول الخميني إن أي علاقة بين الولايات المتحدة وإيران لا يمكنها إلا أن تكون كالعلاقة بين "الذئب والحمل". وفي الواقع، يبدو تشخيص الخامنئي للعلاقات الأمريكية الإيرانية في بعض الأحيان مشابهاً بشكل مفاجئ لتشخيص المتشددين في واشنطن الذين يعتقدون أن البلدين يمثلان أيديولوجيات متناقضة أشد التناقض ومصيرها المواجهة لا محالة. وفي هذا السياق، تنذر كلمة للخامنئي أمام مسؤولين إيرانيين في أيار من العام 2003 أي بعيد سيطرة القوات الأمريكية على بغداد بصراع مرير:
"من الطبيعي بمكان أن ترى قوة قمعية على غرار الولايات المتحدة في نظامنا الإسلامي عدواً وخصماً لا يُحتمل فهي تحاول إرساء ديكتاتورية عالمية وتعزيز مصالحها عبر السيطرة على الأمم الأخرى والدوس على حقوقها. كذلك، من الواضح بمكان أن الصراع والمواجهة بين الاثنين أمر طبيعي لا يمكن تفاديه."[20]

ويشير مقربون آخرون من الخامنئي إلى أنه على العكس يسعى إلى اعتراف الولايات المتحدة بالجمهورية الإسلامية وتطبيع العلاقات الإيرانية الأمريكية لكنه مقتنع أن واشنطن هي المعارضة أيديولوجياً لطهران

[20] كلمة أمام الطلاب في جامعة شاهد بهشتي، 12 أيار 2003.

وليس العكس. وهو غالباً ما يذكر أن معارضة الولايات المتحدة لإيران ليست بسبب سلوك طهران الخارجي، أي بسبب طموحاتها النووية ومعارضتها لإسرائيل ودعمها لحزب الله، بل لأن موقع إيران الإستراتيجي وموارد طاقتها أهم بكثير من أن تسيطر عليها حكومة إسلامية عازمة على الاستقلال:

"إن إيران تلفت انتباه هذه القوة المستكبرة والمعتدية الى امور عدة. أولها أن إيران بلد غني بموارده الطبيعية على غرار النفط والغاز. وثانيها أن موقع إيران الجغرافي بالغ الأهمية بما أنّ لها خطاً ساحلياً طويلاً على الخليج الفارسي وبحر عُمان وهي تشكّل بوابة الغرب الرئيسة إلى آسيا الوسطى... غير أن السبب الأساسي للعداء الأمريكي تجاه بلادنا هو الهوية الإسلامية لنظامنا ومعارضة نظامنا الإسلامي للقمع والسيطرة والديكتاتورية والاتكال السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي على الآخرين."[21]

ويعتقد الخامنئي أن هدف واشنطن الأيديولوجي هو العودة إلى علاقة السيّد والعبد مع إيران التي تمتعت بها أيام الشاه:

"إن الحكومة الأمريكية لم تتخلّ بعد عن جشع لا ينتهي للسيطرة على بلادنا. فالأمريكيون ما زالوا يفكّرون في استعادة سيطرتهم الشريرة على إيران التي بلغت ذروتها مع الانقلاب على رئيس الوزراء الأسبق محمد مصدّق في 19 آب من العام 1953 واستمرّت حتى انتصار الثورة الإسلامية في العام 1979. وما زالوا يتحسرّون على الزمن الذي كان فيه رئيس البلاد، لاسيما الفاسد الخائن محمد رضا بهلوي، لا يتخذ أي قرار من دون استشارة المسؤولين الأمريكيين."[22]

وقد أثّرت نظرة الخامنئي إلى النوايا الأمريكية في السياسة الداخلية والخارجية الإيرانية بطريقتين مهمّتين. أولاً، بما أن الخامنئي مقتنع أن السياسة الأمريكية ما زالت سياسة ترمي إلى تغيير النظام لا السلوك، فإنه متمسك بضرورة رفض إيران للمساومة في وجه الضغط أو الترهيب الأمريكي لأنها ستعكس بذلك ضعفاً يشجّع ممارسة المزيد من الضغط:

"إذا ما خاف مسؤولو بلد ما من تسلّط القوى المستكبرة وراحوا نتيجة لذلك يتراجعون عن مبادئهم ويتنازلون لتلك القوى، فإن هذه التنازلات لن تنتهي أبداً! أولاً ستمارس تلك القوى الضغط عليكم للاعتراف بعدم شرعية هذا النظام أو ذاك ومن ثم سترغمكم على عدم وصف دستوركم بالإسلامي! ولن يتوقفوا أبداً عن الحصول على تنازلات منكم عبر الضغط والترهيب وستضطرون إلى التراجع عن قيمكم ومبادئكم خطوة تلو أخرى! وبالفعل لن تنتهي الضغوط الأمريكية إلا عندما يعلن المسؤولون الإيرانيون أنهم مستعدون على المساومة على الإسلام وحكمهم الشعبي في الجمهورية الإسلامية وعندما يُسمح للولايات المتحدة بتعيين من تشاء لحكم هذه البلاد!"[23]

---

[21] كلمة أمام الطلاب في جامعة شاهد بهشتي، 28 أيار 2003.

[22] كلمة أمام مسؤولين في وزارة التربية، 17 تموز 2002.

[23] كلمة أمام الطلاب في جامعة شاهد بهشتي، 28 أيار 2003.

وفي هذا السياق، وعلى الرغم من إحالة إيران إلى مجلس الأمن وتشديد العقوبات والتهديدات العسكرية الأمريكية، فإن المقاربة الإيرانية للمسألة النووية تميزت بالتحدي أكثر من أي وقت مضى. وبحسب الخامنئي فإنها إستراتيجية صارمة: "لا يمكن نيل الحقوق بالتوسّل فإذا ما رجوت وتراجعت وأظهرت قدراً من المرونة ستزيد القوى المستكبرة من حدة تهديدها."[24]

ثانياً، بما أن الخامنئي يرى واشنطن معادية لأصل وجود الجمهورية الإسلامية، صارت معارضة الولايات المتحدة في السياسة الخارجية أولوية أهم للحكومة الإيرانية من المصالح الوطنية الآنية لإيران. وقد شجّع هذا الأمر طهران على السعي إلى إنشاء تحالفات غريبة مع بلدان بعيدة على غرار فنزويلا وروسيا البيضاء وإلى تقديم الدعم إلى مجموعات لا يجمعها بها جامع ما خلا عدائها للولايات المتحدة على غرار تنظيم طالبان السني الأصولي في أفغانستان (الذي كادت تخوض إيران ضدها حرباً منذ عقد مضى).[25]

وعلى الرغم من عدم ثقة الخامنئي على الإطلاق بالولايات المتحدة وازدرائه لإدارة بوش، يمكن للباحثين عن علامات البراغماتية أن يجدوها. ففي أيار من العام 2007، دعا علناً إلى الحوار مع الولايات المتحدة حول العراق وهي المرة الثانية التي يدعو فيها إلى ذلك (المرة الأولى كانت في شباط من العام 2006 ولاقت دعوته رفض واشنطن).

وبغية كفّ شر المتشددين الإيرانيين، يخفي الخامنئي حتى الإشارات التوفيقية في اطار متشدد:

"ستدور المحادثات حول مسؤوليات المحتلين في العراق لا أكثر. إنهم يظنون أن الجمهورية الإسلامية غيّرت سياستها الثابتة والمنطقية والمبرّرة المتمثّلة برفض التفاوض مع الولايات المتحدة. لكنهم مخطئون. فكيف يمكن التفاوض مع الحكومة الأمريكية المستكبرة والمتسلطة والتوسعية والاستعمارية؟"[26]

ومؤخراً أدلى الخامنئي بأهم تعليقاته المرتبطة باحتمال إنشاء علاقات دبلوماسية بين إيران والولايات المتحدة، مغلقاً الباب أمام أي علاقة مع إدارة بوش لكن فاتحاً في الوقت عينه الباب للمستقبل:

"إن قطع العلاقات مع أمريكا هو من سياساتنا الأساسية. غير أننا لم نقل قط أن العلاقات ستبقى مقطوعة إلى الأبد... ولأن ظروف الحكومة الأمريكية حالياً قد تجعل من أي علاقة معها أداة تلحق الضرر بالأمة فإننا لا نسعى حالياً إلى استعادتها.. وقد تؤمّن أي علاقة الآن الفرصة للأمريكيين لاختراق إيران وقد تعبّد الطريق أمام أجهزة استخباراتهم وجواسيسهم... ومن هنا فإن العلاقات مع أمريكا ليست مفيدة للأمة الإيرانية في الوقت الحالي. ولا شك في أنه ما إن تصير العلاقات مع أمريكا مفيدة للأمة الإيرانية حتى أكون أوّل الموافقين عليها."[27]

وفي حين يعدّ عدم ثقة الخامنئي بالادارة الحالية وكرهه الشخصي للرئيس بوش عوائق أصعب من أن يتم تخطيها، فإن خطاباته تعكس ثقة إيرانية متزايدة بأن نخب السياسة الخارجية الأمريكية بدأت تعي المصاعب الأمريكية في العراق، ودور إيران الذي لا غنى عنه في الشرق الأوسط، وامتلاكها دورة الوقود النووي

---

[24] مجلة بيزنس ويك، "قائد إيران: لن نتوسل من أجل الطاقة النووية"، حزيران 2007.

[25] روبن رايت، "تدفق الأسلحة الإيرانية في تزايد على قول المسؤولين"، صحيفة واشنطن بوست، 3 حزيران 2007، المقالة 14.

[26] وكالة اسوشييتد برس، 16 أيار 2007.

[27] كلمة أمام الطلاب في يزد، 3 كانون الثاني 2008.

وشرعية حكومة الجمهورية الإسلامية. أما رسالة الخامنئي فهي أنه منفتح على إنشاء علاقة مع أمريكا اذا تقبّلت هذه الوقائع.

مؤامرات واشنطن

يحتاج أعداء إيران، أكثر مما يحتاجون إلى المدافع والمسدسات وغيرها، إلى نشر قيم ثقافية تقود إلى الفساد الأخلاقي. وقد صرحوا بذلك مرات عدة. أما أنا فقرأت مؤخراً في الأخبار أن مسؤولاً بارزاً في مركز سياسي أميركي مهم قال: "بدلاً من القنابل أرسلوا إليهم التنانير القصيرة". وهو محق. فهم إذا ما أثاروا الرغبات الجنسية في أي بلد كان، وإذا ما نشروا الاختلاط غير المقيّد للرجال والنساء، وإذا ما قادوا الشباب إلى التصرف بطرق يميلون إليها طبيعياً بحكم غرائزهم، فإنهم لن يحتاجوا بعد ذلك إلى استخدام المدافع والمسدسات ضد تلك الأمة.

–كلمة لمحطة التلفزيون الإيرانية الرسمية في العام 2003.

وفي خطاباته، يولي الخامنئي التعاطي مع مخططات العدو للإطاحة بالجمهورية الإسلامية أهمية توازي ما يوليه من أهمية إلى الأجندة الوطنية الإيرانية. وهو يعتقد أن أجندة الحكومة الأمريكية تعمل إما على رؤية الجمهورية الإسلامية تندثر وتتفكك على غرار الاتحاد السوفييتي أو على جعلها تسير على درب "الثورات المخملية" التي شهدتها أوروبا الشرقية والتي هي عبارة عن انقلابات أطلقها مثقفون "موالون للغرب".
واستناداً إلى فهمه لسياسات واشنطن في الحرب الباردة، لا يتخوف الخامنئي من هجوم عسكري أمريكي بل من هجمة ثقافية تؤدي إلى دق إسفين الخلاف بين النخب السياسية في البلاد. ومن شأن هذه الهجمة نشر "الرذيلة الغربية" والنفوذ الثقافي لتقويض جذور المجتمع الإيراني التقليدي ودفع الناس إلى التنكر للنظام الإسلامي ولإثارة الاضطرابات الإثنية والمذهبية. وفي حين قد تتغير التكتيكات المتّبعة، يبقى لواشنطن من وجهة نظر الخامنئي طموحات للهيمنة على إيران:
"لسنوات عدة، قمعت البلدان الاستعمارية الأمم الأخرى وسلّمت مقاليد الحكم لديكتاتوريين وأنظمة عسكرية ومنعت المشاركة الوطنية عبر أي وسيلة ممكنة. أما اليوم فترى هذه البلدان أن هذه الطريقة ما عادت فعالة. لذا وجدت طريقة أخرى للسيطرة على البلدان الأخرى هي السيطرة عليها عبر التأثير في مجتمعاتها. وهذه الطريقة هي ما أشرت إليها مؤخراً باعتبارها استعماراً حديثاً... وفي حقبة الاستعمار الحديث الراهنة، تحاول القوى المستكبرة التأثير في بلدان أخرى بمساعدة عملائها وعبر إنفاق المال وعبر تكتيكات الدعاية والترغيب المثير."[28]

وبحسب المقربين من الخامنئي، فإن السيّد القائد أمضى وقتاً طويلاً في تحليل الظروف الداخلية التي أدت إلى سقوط حكومتي الاتحاد السوفييتي والكتلة الشرقية فضلاً عن التكتيكات التي استخدمتها الحكومة الأمريكية لتسهيل نهايتهما. وفي كلمة مفاجئة في مدى صراحتها شرح الخامنئي في العام 2000، أي في الوقت الذي

[28] خطاب أمام أهل قم، 8 كانون الثاني 2005.

شبّه فيه العديد من المراقبين الرئيس خاتمي بميخائيل غورباتشوف، بالتفصيل ما اعتبره خطة الحكومة الأمريكية الرامية إلى دفع إيران للسير على خطى الاتحاد السوفييتي:

"كشخص تعامل مع مواضيع وتيارات سياسية متعددة منذ بداية الثورة، أنا معتاد إلى حد كبير على السياسيين وأقوالهم فضلاً عن الدوافع الكامنة وراء الدعاية في وسائل الإعلام الدولية. وبناء على هذه الخبرة توصلت اليوم إلى الاستنتاج بأن الولايات المتحدة وضعت خطة شاملة للإطاحة بالنظام الإسلامي. وتُعَد هذه الخطة تقليداً للخطة التي أدت إلى انهيار الاتحاد السوفييتي السابق. فالمسؤولون الأمريكيون ينوون تطبيق الخطة عينها في إيران علماً أنه في ملاحظاتهم الأنانية والمتسرعة غالباً التي أدلوا بها إبان السنوات القليلة المنصرمة ما يكفي من الأدلة لتأكيد نيتهم القيام بذلك.

بيد أن العدو ارتكب بعض الأخطاء في حساباته. وأنا سأتطرق إلى هذه الأخطاء لكن هذا لن يساعد العدو في تصحيح تلك الأخطاء بما أن مشكلته الأساس تكمن في معرفته الخاطئة للوقائع الإيرانية وبالتالي في سوء تخطيطه. لهذا السبب دائماً تبوء جميع خططهم حول إيران بالفشل.

أما بالنسبة إلى الأخطاء التي ارتكبها الأعداء، فالخطأ الأول أن السيد خاتمي ليس غورباتشوف؛ والخطأ الثاني أن الإسلام ليس الشيوعية. أما الخطأ الثالث فهو أن النظام الشعبي للجمهورية الإسلامية ليس النظام الديكتاتوري للطبقات العاملة. والخطأ الرابع هو أن إيران المتكاملة ليست شبيهة بالاتحاد السوفييتي السابق المؤلف من جمهوريات مختلفة. والخطأ الخامس هو أنهم قللوا من تقدير الدور المحوري للقيادة الدينية والروحية في إيران."[29]

وعلى غرار الضغط الذي واجهه الاتحاد السوفييتي من جمهورياته المعزولة، يعتقد الخامنئي أيضاً أن الولايات المتحدة توقد نار الفتنة الإثنية والمذهبية في الداخل الإيراني عبر دعم مجموعات انفصالية إثنية في مناطق بالوشستان وخوزستان وكردستان الإيرانية. "بغية تقويض وحدتنا الوطنية، تسعى واشنطن إلى إقامة جدران سياسية ودينية وإثنية بين المجموعات والشرائح المختلفة للمجتمع الإيراني."[30]

والملفت أن جملة من التكتيكات التي يتهم الخامنئي الولايات المتحدة باستخدامها لخدمة مصالحها في إيران على غرار الدعاية والقوة المعتدلة والنفوذ الثقافي هي شبيهة إلى حد كبير بالإستراتيجيات التي تتهم الدول العربية إيران باستخدامها في الشرق الأوسط.

قمة الظلم: إنشاء إسرائيل

موقفنا من قضية فلسطين موقف عادل ومنطقي. فمنذ عقود عدة، صرح رجل الدولة المصري جمال عبد الناصر في شعاراته أن المصريين سيرمون اليهود، مغتصبي فلسطين، في البحر. وبعد عدة سنوات، قال صدام حسين، الرئيس العربي المكروه أكثر من غيره، أنه سيشعل النار في نصف الأراضي الفلسطينية. أما نحن فنعتقد بحسب مبادئنا الإسلامية أن لا رمي اليهود في البحر ولا إحراق الأرض الفلسطينية منطقي أو عقلاني. وموقفنا هو أنه على الشعب الفلسطيني استعادة حقوقه. ففلسطين ملك للفلسطينيين ومصير فلسطين يجب أن يكون أيضاً بيد الشعب الفلسطيني.

---

[29] "الإصلاحات والإستراتيجيات والتحديات"، 10 تموز 2000.

[30] خطاب الولي الفقيه في يوم الطالب، 4 تشرين الثاني 2002.

–كلمة ألقاها أمام جمع من علماء الدين في قمّ المقدسة في حزيران من العام 2006.

والملفت أن الموضوع الأكثر حضوراً في الخطاب السياسي للخامنئي طوال العقدين المنصرمين ليس له فعلياً أي وقع على الحياة اليومية للإيرانيين وهو موضوع الصراع الفلسطيني الإسرائيلي. فعلى عكس القادة العرب الذين يتكلمون عن القضية الفلسطينية بغية ارضاء شعوبهم، تقوم القيادة السياسية في إيران بالعكس تماماً. فعلى الرغم من أن القضية الفلسطينية لا تلقى صدىً قوياً في الشارع الإيراني بما أن إيران ليست عربية وليس لها خلافات حدودية مع إسرائيل ولا تعاني مشكلة اللاجئين الفلسطينيين وتضم أكبر طائفة يهودية في الشرق الأوسط خارج إسرائيل، فإن القادة الإيرانيين لاسيما الخامنئي يعرب عن ازدراء لا يستكين للدولة اليهودية.

ولا يرى بعض مراقبي إيران عدائية الجمهورية الإسلامية إزاء الدولة اليهودية ناجمة عن صراع أيديولوجي بقدر ما يرونها متأتية عن مناورة ترمي من خلالها إيران الفارسية الشيعية إلى التحول إلى الدولة الاكثر هيمنةً في الشرق الأوسط العربي السني بغالبيته. وفي حين تراجعت أهمية القضية الفلسطينية بالنسبة إلى بعض القادة الإيرانيين (ومنهم ربما الرئيس الأسبق رفسنجاني) فإن ازدراء الخامنئي الراسخ "للكيان الصهيوني" لم يتراجع. وفي حين ترك الخامنئي مجالاً للغموض في ما يتعلق باحتمال تطبيع العلاقات مع الولايات المتحدة وإن نادراً، فإن رفضه لإسرائيل رفضٌ لا لبس فيه. وبالنسبة إلى العديد من المراقبين المتتبعين للعلاقات الأمريكية الإيرانية يمثّل موقف الجمهورية الإسلامية الرافض للمساومة حول إسرائيل العائق الأكبر أمام العلاقات الأمريكية الإيرانية. وليس الخامنئي بمدرك هذه المسألة فحسب بل هو أيضاً يوافق المراقبين رأيهم. ومع ذلك فإنه لا يبدو مستعداً لإتمام هكذا صفقة:

"إن الاتهامات المضحكة على غرار انتهاك حقوق الإنسان أو السعي لامتلاك أسلحة الدمار الشامل هي ليست سوى مزاعم فارغة ترمي إلى ممارسة الضغط على الجمهورية الإسلامية... وإذا ما أوقفت إيران دعمها للشعبين اللبناني والفلسطيني فإن الولايات المتحدة ستغيّر أيضاً موقفها العدائي من الجمهورية الإسلامية... لكننا نعتبر دعم الشعبين الفلسطيني واللبناني واجباً من واجباتنا الإسلامية الكبرى. لهذا السبب تستخدم واشنطن الضغط على الجمهورية الإسلامية بغية وقف هذا الدعم."[31]

ويركّز الخامنئي على آفاق الدولة الفلسطينية أقل من تركيزه على السلوك "الإجرامي" "للصهاينة الأوغاد" ليس في الأراضي المقدسة فحسب بل أيضاً في جميع أصقاع المعمورة. وهو معارض صريح لمحادثات السلام بما فيها اجتماعات أنابوليس لتأكيده أن النضال المسلح لا المفاوضات هو الذي سينتزع التنازلات من إسرائيل في النهاية:

"طوال سبعين عاماً مضت على احتلالهم لفلسطين، لم ينسحب الصهاينة من متر مربع واحد من الأراضي المحتلة كنتيجة للمفاوضات...فالمفاوضات لم تؤد قط إلى تحرير الأراضي المحتلة وهي لن تحررها في المستقبل أيضاً."[32]

---

[31] خطاب في المؤتمر الدولي لدعم الانتفاضة، 24 نيسان 2001.

[32] كلمة في صلاة الجمعة في طهران، 19 آب 2005.

لكن في الوقت عينه، بذل الخامنئي جهداً حثيثاً لوضع تصريحات الرئيس أحمدي نجاد الداعية إلى "إزالة إسرائيل من الوجود" في سياقها الصحيح. فهو صرّح مراراً وتكراراً أن هدف إيران ليس التدمير العسكري للدولة اليهودية ولا للشعب اليهودي، بل إلحاق الهزيمة بالعقيدة الصهيونية وحلّ إسرائيل عبر "استفتاء شعبي": "ليس من حل سوى حل واحد للقضية الفلسطينية وهو الحل الذي اقترحناه منذ بضع سنوات. وهذا الحل هو إجراء استفتاء يشارك فيه جميع السكان الأصليين الفلسطينيين بمن فيهم المسلمون واليهود والمسيحيون، والفلسطينيون المقيمون في داخل الأراضي المحتلة وفي خارجها على حد سواء. وستكون أي حكومة تستلم الحكم كنتيجة لهذا الاستفتاء واستناداً إلى تصويت الشعب الفلسطيني، سواء كانت حكومة مسلمة أو مسيحية أو يهودية أو حكومة تحالف، بمثابة حكومة مقبولة وهي ستحل قضية فلسطين. ومن دون هذا الحل لن تتم تسوية القضية الفلسطينية."[33]

وعلى الأرجح فإن الطريقة الوحيدة لقبول الخامنئي بموقف أقل تشدداً إزاء إسرائيل هو عندما يقبل الفلسطينيون أنفسهم بمعاهدة سلام مع إسرائيل. لكن بما أن الدفعة الأخيرة التي تلقتها عجلة مفاوضات السلام الفلسطينية الإسرائيلية إنما هدفت بجزء منها إلى عزل إيران، فإن لطهران حافزاً لمحاولة تخريبها. وفي التحضير لمؤتمر أنابوليس في تشرين الثاني من العام 2007، دعم الخامنئي حركة حماس بشدة ودعا الدول العربية إلى مقاطعة المؤتمر معلناً أن "الهدف الأساس من قمة السلام هذه هو إنقاذ النظام الصهيوني."

طليعة العالم الإسلامي

منذ بداية الجمهورية الإسلامية في العام 1979، تصوّر آية الله الخميني أن رؤيته الثورية للعدل الإسلامي ستنتشر إلى ما بعد الحدود الإيرانية وعلى امتداد العالمين العربي والإسلامي. وفي حين صارت مقاربة طهران للسياسة الخارجية أكثر براغماتية وأقل ثورية منذ وفاة الخميني، ظلت إيران تتطلع بقيادة الخامنئي إلى أن تكون طليعة الشرق الأوسط.

وتتألف إستراتيجية الخامنئي لتعزيز النفوذ الإقليمي لإيران من ثلاثة عناصر. أولها التأكيد أن إيران والعالم الإسلامي يتشاركان المصالح عينها والأعداء عينهم. فهو مثلاً يعمد من أجل تخفيف المخاوف العربية من طموحات إيران النووية إلى الإشارة مراراً وتكراراً إلى أن الانجازات النووية الإيرانية ملك للعالم الإسلامي برمته. وفي الوقت عينه يحذّر الخامنئي العرب من التآمر مع الولايات المتحدة ضد إيران: "إن أي نجاح تحققه الأمة الإيرانية سيحمل الفخر والعزة للأمة. كذلك، إن أي أذى يلحقه الأعداء بنظامنا الإسلامي سيلحق الأذى بمصالح العالم الإسلامي برمته."[34]

وثانيها الاعتقاد بأن خير وسيلة تستخدمها إيران لنشر قوتها ونفوذها على امتداد المنطقة هي الانتخابات الديمقراطية. فالأداء الانتخابي القوي لحماس في فلسطين وحزب الله في لبنان والأخوان المسلمين في مصر والمتدينين الشيعة في العراق زادت من ثقة طهران بأن أصدقاءها الإسلاميين فازوا باستملاة شعوبهم في وقت

[33] خطاب أمام مسؤولي الهيئة القضائية، 28 حزيران 2005.

[34] كلمة أمام ضيوف إيرانيين وأجانب، 28 حزيران 2005.

يشهد فيه الليبراليون الميالون إلى الغرب تراجعاً كبيراً. ويردّد الخامنئي قوله: "إذا ما أجري استفتاء في أي بلد إسلامي فإن الناس سيصوتون للداعمين للإسلام وهويتهم الوطنية والمعارضين للولايات المتحدة".[35]
وعلى غرار العديد من مراقبي الشرق الأوسط، ينسب الخامنئي الفضل في "الصحوة الإسلامية" إلى إيران واثقاً أن مواقفها وعقيدتها ورؤيتها للشرق الأوسط يشاركها فيها الغالبية العظمى من الشارع العربي والإسلامي. ولا ريب في أن الموقف الايراني المتحدي لإسرائيل والولايات المتحدة مفيد في هذا الصدد:
"لقد كسحت موجة من التجدد الإسلامي العالم الإسلامي وراحت الأمم المسلمة تعرب عن رغبتها في العودة إلى الإسلام وممارسة هذا الدين الحنيف. وقد نبعت هذه الصحوة من الثورة الإسلامية العظمى للشعب الإيراني بقيادة إمامنا العظيم الراحل...لقد طلب أعداؤنا إلينا ألا نصدّر ثورتنا! فأجبنا بأن الثورة لا يمكن أن تصدّر بما أنها ليست سلعة! بيد أن ثورتنا الإسلامية، الشبيهة بأريج أزهار الربيع الذي يحمله النسيم، بلغت كل زاوية من زوايا العالم الإسلامي وأحدثت تجدداً في الأمم المسلمة."[36]
أما الإستراتيجية الثالثة التي استخدمها الخامنئي لتدعيم الهيمنة الإقليمية فمزيج من النفوذ السياسي والثقافي مصحوب بوسائل عسكرية غير تقليدية (أي الميليشيات) بغية منح إيران دوراً في عدد من الساحات السياسية والامنية المهمة في المنطقة. ومن وجهة نظر الخامنئي، لا يمكن معالجة أي من القضايا الحساسة التي تواجه الشرق الأوسط والعالم الإسلامي على غرار مشاكل العراق وأفغانستان ولبنان وأمن الخليج الفارسي والسلام العربي الإسرائيلي، ولا يمكن حلّها أيضاً، من دون رأي لإيران؛ حتى عندما تكون القوّة العسكرية الأمريكية وقوة حلفائها اكبر بكثير من قوة إيران العسكرية في كل من هذه الأماكن:
"إن الأمة الإيرانية بلغت اليوم مكانة رفيعة اصبح معها دورها في المعادلة الإقليمية حاسماً للغاية. وهذا أمر تعترف به قوى الاستكبار العالمي نفسها التي بدأت تدرك أنه لا يمكن حل القضايا المهمة في منطقة الشرق الأوسط من دون تعاون إيران ومساهمتها وأنه لا بد من الاستماع إلى الآراء الإيرانية حول تلك القضايا وأخذها بعين الاعتبار."[37]

وتماشياً مع طموحات إيران كأمة، من الجدير الإشارة إلى أن الموقع الالكتروني الرسمي للخامنئي يشير إليه باعتباره " المرشد الأعلى للثورة الاسلامية" عامة لا "المرشد الأعلى للثورة الاسلامية في ايران" فقط. وفي حين كانت مثل هذه الاشارة لتبدو منذ سنوات خلت غير واقعية، فإن الاجتياح الأمريكي للعراق لم يعزز نفوذ إيران الإقليمي فحسب بل عزز أيضاً سلطة الخامنئي. وعلى الرغم من أن بعض علماء الدين، على غرار آية الله السيستاني المولود في إيران، هم أكثر الماماً والعلوم الدينية ولهم قاعدة من المقلّدين تفوق قاعدة الخامنئي، فإن الخامنئي اصبح، بفضل مبالغ المال الهائلة التي تضخها إيران في المؤسسات الدينية الخيرية في العراق ورعايتها المالية للحوزة الدينية في النجف الأشرف وغيرها من المناطق الشيعية، يتمتع بنفوذ لا نظير له الآن في العالم الشيعي.[38] علاوة على ذلك، جعل التحدي الإيراني للولايات المتحدة وإسرائيل الخامنئي واثقاً أكثر من أي وقت مضى بأن القيادة الإيرانية وقيادته الشخصية هما محل إعجاب في الشارع العربي السني.

---

[35] خطاب أمام جنود سلاح الجو، 7 شباط 2005.

[36] كلمة أمام العمال والمعلمين، 30 نيسان 2003.

[37] كلمة وجهها للشعب الإيراني بمختلف طبقاته الاجتماعية، 13 كانون الأول 2006.

[38] لمزيد من المعلومات راجع كتاب مهدي خلجي، "المرجع الأخير"، معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى.

الرمزية الثورية للبرنامج النووي

بالنسبة إلى الخامنئي، جاء البرنامج النووي تجسيداً لثوابت الثورة، أي النضال من أجل الاستقلال، وضرورة الاكتفاء الذاتي، وظلم القوى الأجنبية، وتقدير الإسلام الكبير للعلم. حتى قبل سنوات من كشف النقاب دولياً عن الطموحات الإيرانية في العام 2002، كان يشدد الخامنئي مراراً على أهمية التقدم العلمي والتكنولوجي لمستقبل إيران معلناً في غير مناسبة أن تخطي "التخلف العلمي" في البلاد هو على رأس الأولويات الإيرانية.[39]

ويرى الخامنئي صلة واضحة بين التقدم العلمي والاكتفاء الذاتي والاستقلال السياسي. وتكمن رؤيته المثالية في تمتع إيران بتقدم علمي وتكنولوجي يسمح لها بالاكتفاء الذاتي ولذا الاستقلال الاقتصادي والسياسي. وهو يؤمن بشدة بأن الولايات المتحدة ليست معارضة للطموحات النووية الإيرانية بسبب خطر الانتشار النووي بل بسبب الاستقلال المحتمل والنفوذ الاقتصادي اللذين قد تحققهما إيران من خلالها:

"إنهم معارضون لتقدم الأمة الإيرانية وتطورها. إنهم لا يريدون لبلد إسلامي ومستقل أن يحقق تقدماً علمياً ويمتلك تكنولوجيا متطورة في منطقة الشرق الأوسط، هذه المنطقة التي تملك غالبية النفط العالمي والتي تعد إحدى أكثر المناطق حساسية في العالم.

إنهم قلقون من كل ما قد يساعد الأمم الإقليمية في تحقيق الاستقلال والاعتماد على الذات والاكتفاء الذاتي. إنهم يريدون لهذه المنطقة، الكثيفة السكان والغنية بالموارد، أن تبقى بحاجة إليهم إلى الأبد. لهذا السبب هم يعارضون امتلاكنا تكنولوجيا حديثة ويعارضون إحراز شبابنا أي تقدم في الميادين العلمية.

فمن الصعب على الاستكبار العالمي القبول بأن الأمة الإيرانية الموهوبة تمكنت من القيام بخطوات جبارة في ميدان العلم والتكنولوجيا، لاسيما في ميدان التكنولوجيا النووية. إنهم يريدون أن تبقى طاقة إيران معتمدة إلى الأبد على النفط بما أن النفط حساس لسياسات القوى العالمية. إنهم يرمون إلى السيطرة على الأمم الأخرى بحبال غير مرئية."[40]

ويتمتع الخامنئي بسجل طويل من خطابات مستندة إلى قناعاته، ففي حين قد لا تعكس تصريحاته الحقيقة دوماً فإنه يعتقد بصحة ما يقول. لكن عندما يتعلق الخطاب بالبرنامج النووي الإيراني وفعاليته الاقتصادية وأصوله التاريخية فإن السيّد القائد إما يتعمد تضليل الشعب الإيراني كي يحافظ على مظاهر الاستقلال والاكتفاء الذاتي أو أنه هو واقع ضحية تضليل مقلق.

فمثلاً، في حين يقدّر علماء في الفيزياء النووية أن إيران قد توفر مليارات الدولارات عبر استيراد اليورانيوم المخصّب من الخارج بدلاً من الاعتماد على اليورانيوم المخصّب داخلياً، يذكر الخامنئي باستمرار المنافع الاقتصادية المتأتية عن تخصيب اليورانيوم ودورة الوقود الكاملة. وعلى الرغم من أن الوكالة الدولية للطاقة الذرية أكدت اعتماد إيران بشدة على شبكة عبد القدير خان وروسيا والصين لاستيراد وبناء بنى تحتية نووية ومكونات أساسية، فإن الخامنئي يقول بشكل ملفت:

---

[39] كلمة الولي الفقيه أمام أساتذة الجامعات والنخب الأكاديمية، 13 تشرين الأول 2005.

[40] كلمة الولي الفقيه أمام طلاب ثانويين، 14 آذار 2005.

"نحن مختلفون عن تلك البلدان التي تلقت التكنولوجيا من الاتحاد السوفييتي السابق بسبب انتمائها إلى المعسكر الشيوعي. فحتى الصين حصلت على معونة تكنولوجية مهمة من الاتحاد السوفييتي السابق طوال السنوات العشرة الأولى التي تلت الثورة فيها أي عندما لم يكن البَلدان على خلاف بعد. أما نحن فلم يقدِّم لنا أي بلد على الإطلاق أي معونة تكنولوجية. فنحن طوّرنا ما لدينا بأنفسنا... ونحن نريد إنتاج الوقود لمعمل (بوشهر) للطاقة النووية بدلاً من استيراده من بلدان أخرى. إن ما تقوله الدول الغربية هو أنه علينا الامتناع عن إنتاج الوقود النووي لمعمل بوشهر. إن هذه الدول تقول لنا إنه يمكننا بناء المزيد من معامل الطاقة في إيران شرط أن نشتري حاجتنا من الوقود النووي من تلك الدول!"[41]

ومن المستحيل بمكان معرفة إذا ما كان الخامنئي عمداً يضلل ارأي العام الايراني أو أن مستشاريه يضللونه. فأشارت بعض التقارير الاستخباراتية الصادرة بعد زيارة الرئيس الروسي فلاديمير بوتين لطهران في تشرين الأول من العام 2007 أن بوتين شعر بالصدمة عندما أخبره الخامنئي أنه يسمع بتفاصيل الاقتراح الروسي للتسوية النووية لأول مرة، على الرغم من أن الاقتراح جرت مناقشته بشكل واسع في العلن لقرابة العام. ونظراً إلى سمعة الخامنئي الجيدة بمقدرته على إدارة البلاد إدارة تفصيلية، ما من مجال للتصديق بأنه لم يعرف سوى القليل عن موضوع بهذه الأهمية.

حرب العراق والمذهبية

قد يكون الخامنئي رأى الاجتياح الأمريكي للعراق في العام 2003 من وجهتي نظر مختلفتين للغاية: أحدهما وجهة نظر قائد قدمت بلاده نصف مليون شهيد كنتيجة لاعتداء صدام حسين على ايران، والأخرى وجهة نظر قائد تُهدّد الولايات المتحدة وجود نظامه. وبالتناغم مع النمط الخطابي الثوري، صبّ الخامنئي جامّ غضبه على واشنطن مفسراً حتى المصاعب الأمريكية في العراق كجزء لا يتجزأ من إستراتيجية أميركية أوسع للسيطرة على الشرق الأوسط.
ومن وجهة نظر الخامنئي، اجتاحت الولايات المتحدة العراق بنيّة اقامة نظام دمية مكانه مؤيد لها ومتعاطف مع إسرائيل ومعاد لإيران. وعندما أحبطت "الصحوة الإسلامية" في العراق مخطط الولايات المتحدة الهادف إلى إنشاء عراق علماني ليبرالي مؤيد لها، بدأت واشنطن بدق إسفين الفتنة المذهبية بين السنة والشيعة. فالعنف المذهبي يخدم أيضاً كمبرر لاستمرار الوجود الأمريكي في العراق المرتبط ظاهرياً بحفظ السلام.
وعلى الرغم من أن الواقع الراهن السائد في العراق صبّ في مصلحة إيران، بما أن حلفاءها الأساسيين (أي الشيعة) يمسكون بمقاليد الحكم، وبما أن خصمهم الأساسي تكبد خسائر فادحة بالأرواح والأموال، فإن الخامنئي لم يتوان عن التعبير صراحة عن معارضته المبكرة للحرب. وقد صحّت تنبؤاته السابقة للحرب والمنذرة بمصير عسير لأمريكا في العراق:

[41] كلمة الولي الفقيه أمام المهندسين والباحثين، 23 شباط 2005.

"لا ريب في أن أي عملية عسكرية في المنطقة ستؤدي إلى كارثة كبرى، بما أن منازل عديدة ستُدمّر وأبرياء كثر سيُقتلون. لكن من المؤكد أيضاً أن المعتدي سيَعلق في هذا المستنقع وسيتخبط في وحوله وهذا سيؤدي إلى تسريع سقوطه."[42]

وفي خطابات عديدة مع اقتراب الغزو، حذّر الخامنئي من أن "الولايات المتحدة عبر هجومها على العراق تحت ذريعة مكافحة الإرهاب إنما تنوي فعلياً السيطرة على حقول النفط العراقية والسيطرة على الشرق الأوسط وحماية الكيان الصهيوني".[43] ولو خُيّر الخامنئي بين الشرّين لفضّل نظاماً بقيادة صدام على آخر هو نظام مؤيد لأمريكا، دميةٌ بين يديها، متعاطف مع إسرائيل ومعادٍ لإيران.

ونظراً إلى تحليل الخامنئي للطموحات الأمريكية، عملت أيران على حماية مصالحها في العراق وعلى تقويض المصالح الأمريكية، وكل ذلك من أجل حماية أمنها القومي. وعلى غرار المسؤولين الأمريكيين، رأى الخامنئي وما برح يرى، العراق ساحة معركة أساسية تتنافس فيها الولايات المتحدة وإيران على استقطاب الرأي العام العربي والمسلم. وعلى الرغم من أنه يعترف بأن إيران عاجزة عن منافسة الولايات المتحدة عسكرياً، فإنه يعرب باستمرار عن ثقته بأن الإسلام هو أقوى سلاح تملكه إيران ضد الامبريالية الأمريكية: "في المواجهة بين الهوية الإسلامية والهوية الخاصة بالقوى المستكبرة، خرجت الهوية الإسلامية منتصرة".[44]
ونظراً إلى عجز الولايات المتحدة عن تقديم قضية مقنعة للناس كالإسلام، يعتقد الخامنئي أن واشنطن لجأت إلى تشجيع العنف المذهبي الذي يصلح أيضاً كمبرّر للوجود العسكري الأمريكي. "إن الاغتيالات الحالية في العراق تقوم بها الاستخبارات الأمريكية والصهيونية بما أن غياب الأمن يؤمن ذريعة لاستمرار احتلال العراق".[45]
وقد ساهم اعتقاد الخامنئي بوجود مخطط أمريكي يرمي إلى السيطرة على العالم الإسلامي على قاعدة "فرّق تسد" في جعل الوحدة الإسلامية موضوعاً مهماً يتكرّر في خطابه السياسي. وهنا تجدر الإشارة إلى أن البعض يعتقد في الغرب والعالم العربي خاطئاً أن إيران تنوي إشعال فتيل الفتنة المذهبية بين السنة والشيعة في العراق ولبنان والخليج. والواقع أن هذه قراءة خاطئة تماماً للأهداف الإيرانية. ونظراً إلى أن إيران تطمح إلى لعب دور قيادي في الشرق الأوسط ونظراً إلى أن الشيعة يشكلون أقل من 10 في المائة من مسلمي المنطقة فإن الفتنة المذهبية لا تصب في مصالح ايران ولا في طموحات الخامنئي الراغب في لعب دور قائد للمسلمين عموماً وليس فقط الايرانيين:
"منذ انتصار الثورة الإسلامية في إيران، ما برحت القوى المستكبرة تصوّر ثورتنا على أنها ثورة شيعية... لكن لو كانت ثورتنا ثورة شيعية لكنّا أصبحنا منفصلين عن العالم الإسلامي وما كان ليبقى لنا صلة به. وما كان ليبقى له صلة بنا أيضاً. ولم تكن أنظمة العالم الإسلامي لتعبر عن عدائها لثورتنا. لكنهم لاحظوا أن ثورتنا ثورة إسلامية."

---

[42] خطاب الولي الفقيه في قاعدة بحرية للحرس الثوري الإيراني، 10 آذار 2003.
[43] خطاب الولي الفقيه في قم، 9 كانون الثاني 2003.
[44] خطاب الولي الفقيه أمام مسؤولي وتنفيذيي الجمهورية الإسلامية، 6 نيسان 2007.
[45] تصريحات الولي الفقيه في صلاة الجمعة في طهران، 19 آب 2005.

ويشير الخامنئي أنها ليست إيران من تسعى إلى الحرب مع الإسلام السني بل هي الولايات المتحدة من تسعى إلى حرب مع كامل العالم الإسلامي. ودائماً ما يحذّر الخامنئي الإيرانيين والبلدان العربية على السواء من أن الطرفين الوحيدَين المستفيدَين من الصراع المذهبي هما الولايات المتحدة وإسرائيل:

"تهدف الولايات المتحدة إلى تصوير الجمهورية الإسلامية على أنها جمهورية شيعية وتحاول وضعها في مواجهة الطائفة السنية الكبرى. إن هذا مخطط بالغ الخطورة يحاول سياسيوهم حالياً تنفيذه... لذا علينا ألا نألو جهداً لإحباط هدف القوى المستكبرة. وعلى المسلمين التمتع بالوعي واليقظة. وعلى أمتنا ونخبتنا وعلمائنا ورجال ديننا المتفانين الحذر من التفوّه بكلمة أو القيام بفعل قد يخدم مخطط الأعداء."[46]

ويخاطب الخامنئي القادة العرب المتحالفين مع الولايات المتحدة الذين حذّروا من مخاطر صعود "الهلال الشيعي" (العاهل الأردني عبد الله الثاني) أو أعلنوا أن الشيعة العرب أشد ولاء لإيران من ولائهم لبلدانهم (الرئيس المصري حسني مبارك)، مشيراً إلى أن إيران معروفة لدعمها الحركات الإسلامية السنية على غرار حماس بقوة توازي قوة دعمها للتنظيمات الشيعية على غرار حزب الله. علاوة على ذلك، يرمي الخامنئي إلى طمأنة القادة العرب من أن إيران لا مطامع لها في اقتطاع أراض من العالم العربي أو الهيمنة عليه وبالتالي يجب اعتبارها شقيقة كبرى بدلاً من منافسة:

"منذ انتصار الثورة الإسلامية، ما برح الأعداء ينشرون دعايات سياسية مغرضة ضد إيران بنيّة تخويف دول المنطقة والحكومات العربية من الجمهورية الإسلامية. بيد أن هذه الدول والحكومات رأت أن الجمهورية الإسلامية الإيرانية لم تشنّ طوال أكثر من عقدين من الزمن أي اعتداء على أي دولة مجاورة أو غير مجاورة. وإذا كان من اعتداء فهو اعتداء قام به بلد عربي على إيران، وهو نظام صدام حسين الوخيم العاقبة الذي هاجم بلادنا أولاً ثم اجتاح الكويت. وهو كان ليهاجم بلدان عربية أخرى أيضاً لو سنحت له الفرصة للقيام بذلك. وعلى الدول العربية أن تعي أن عظمة الإسلام وعزّته وقوة الجمهورية الإسلامية في إيران هي لمصلحتها أيضاً. فالولايات المتحدة تستغل ضعف البلدان الإسلامية وهي تتسلط على حكوماتها وتُرهبها. وفي حين لا تُحجم الولايات المتحدة عن الخضوع للنظام الصهيوني الغاصب في أي وقت كان، فإنها تتسلّط على بعض الحكومات العربية وتبتزها. لكن إذا ما ركنت هذه الحكومات إلى قوة عظمى، فإنها لن تُرغم قطّ على الخضوع للولايات المتحدة."[47]

التحديات أمام قيادته ومستقبل إيران ما بعد الخامنئي

على الرغم من أن بعض كبار العلماء في قمّ قد لا يقدّر عالياً مؤهلات الخامنئي الدينية، فإن لا أحدا منهم يشكل تحدياً لقيادته. وصحيح أن آية الله العظمى منتظري الذي كان يوماً المرشح الأبرز لخلافة الخميني، ما انفك يوجه انتقادات لقيادة الخامنئي، لكنه بأعوامه الخامسة والثمانين أضعف من أن يعتبر قائداً محتملاً للدولة. ومنذ انتخاب أحمدي نجاد زاد الحديث عن طموح العالم المتشدد آية الله مصباح يزدي، المستشار الديني

[46] خطاب الولي الفقيه أمام أهل قم، 8 كانون الثاني 2007.

[47] المرجع نفسه.

لأحمدي نحاد، في خلافة الخامنئي بل وحتى تجاوزه لمنصب القيادة. لكن خسارته في كانون الأول من العام 2006 في انتخابات مجلس الخبراء امام رفسنجاني قضت على هذا الاحتمال.

ولعل الشخص الوحيد في الجمهورية الإسلامية الذي يمكن اعتباره منافساً سياسياً محتملاً للخامنئي هو رفسنجاني بنفسه الذي غالباً ما يشار إليه بوصفه "ثاني أقوى رجل في إيران". وترقى العلاقة بين الخامنئي ورفسنجاني إلى الستينيات عندما كانا طالبين لدى الخميني في قمّ وناشطين سياسيين ضد نظام الشاه. وقد أمضى كلّ منهما سنوات عدة في السجن في ظل حكم الشاه وتبوّءو مناصب مهمة بعد الثورة بسبب قربهما من الخميني. وفي الثمانينيات اعتُبر رفسنجاني (رئيس البرلمان عندئذ) والخامنئي (رئيس الجمهورية) حليفين "براغماتيين" ضد العناصر الأكثر تشدداً في حكومة الثورة الحديثة النشأة.

لكن طوال العقد المنصرم، زاد الاختلاف بينهما بشكل واضح على مستوى السياسة الخارجية والداخلية. فرفسنجاني أبدى استعداده لإصلاح العلاقات الإيرانية الأمريكية وفتح الاقتصاد وتخفيف القيود الاجتماعية الإسلامية في حين ظلّ الخامنئي متشدداً على كافة المستويات. ونظراً إلى أن رفسنجاني ساعد الخامنئي في الفوز بمنصب المرشد الأعلى، فإنه يمتعض من تفوق الخامنئي عليه.

وعندما عرف رفسنجاني أن الخامنئي لم يشجع ترشيحه للانتخابات الرئاسية في العام 2005، ردّ كبير مستشاريه محمد أترينفار بالقول: "إن رفسنجاني ركن من أركان هذه الثورة وهو لا يحتاج إلى الإذن من أحد".[48] والملفت ايضاً أن نجل رفسنجاني أفاد لمراسل صحفي قبل الانتخابات الرئاسية في حزيران من العام 2005 أن والده إذا ما انتخب رئيساً سيغير الدستور الإيراني لتقليص سلطة الخامنئي عبر جعل منصب المرشد العام منصباً شكلياً شبيهاً بمنصب "ملك انكلترا"[49]، غير أن ما لحق من هزيمة برفسنجاني على يد أحمدي نجاد جعل من تفوق الخامنئي واقعاً لا يمكن إنكاره.

وفي الحقيقة، يكمن التحدي الأكبر لاستمرار الخامنئي كمرشد في صحته، وتشير المعلومات المتناقَلة غير المؤكدة انها في تدهور. فالخامنئي يبدو أكبر من سنواته الثماني والستين وما برحت ترِد تقارير عن صحته المتردية منذ محاولة اغتياله في العام 1981. وتجري شائعة على الألسن في طهران مفادها أنه يدخن الأفيون لأغراض طبية، لاسيما لتسكين ألم يده المشلولة. وقد اعترف أطباؤه ومستشاروه سراً أنه عانى مطولاً نوبات اكتئاب وجد فيها البعض تفسيراً لعجزه عن اتخاذ قرارات صعبة وتفضيله القبول بالوضع القائم. ومؤخراً يجري كلام بين المطّلعين في الجمهورية الإسلامية مفاده أن الخامنئي يخضع لعلاج لسرطان البروستات. وازدادت هذه الشائعات العام المنصرم، عندما ظهر الخامنئي بعد غياب عن الساحة العامة دام أسابيع عدة على التلفزيون الإيراني وبدا شاحب اللون ملتحفا بغطاء وصوته منخفض وخشن. وللمرة الأولى تعاطت وسائل إعلام الدولة علناً مع مسألة صحة السيّد القائد زاعمة أنه كان مصاباً "بزكام حادّ" لا أكثر. لكن على الرغم من استمرار جميع هذه الشائعات لم تشر إطلالات الخامنئي العلنية في الأشهر الأخيرة إلى أنه يضعف بشكل ملحوظ.

إيران ما بعد الخامنئي

---

[48] مقابلة المؤلف مع كبير مستشاري رفسنجاني، محمد أترينفار، 27 أيار 2005.

[49] بربارة سالفن، "إيران تتطلع مجدداً إلى القبطان المحنك"، مجلة يو أس آي توداي، 6 شباط 2005.

مهما كان الوضع الصحي للخامنئي، فإن السؤالين حول من سيخلفه وهل ستستمر مؤسسة المرشد الأعلى من بعده أصبحا محل تكهنات عديدة في طهران. وبالانطلاق من المعايير المستخدمة لتبرير اختيار الخامنئي قائداً، أي رجل دين متوسط المرتبة يمتلك "المهارات السياسية والإدارية المناسبة"، ليس من مرشحين كثر.

فإذا ما افترضنا أن رفسنجاني سيبقى حياً بعد موت الخامنئي فإنه المرشح الأكثر أهلية لخلافته علماً أن هذا الافتراض مشكوك به لأن رفسنجاني يكبر الخامنئي بخمسة أعوام. لكن بغض النظر عن السن والاعتبارات الأخرى كعدم انتمائه إلى سلالة النبي (ولهذا يضع عمامة بيضاء لا سوداء)، فإن سمعة رفسنجاني كأغنى رجل في إيران تجعله محلاً لنقمة الشعب. والأهم من ذلك إنه غير مقبول من الكتلة المحافظة المتشددة في إيران التي تهاجمه بشكل يومي تقريباً في وسائل إعلامها متهمة إياه بالفساد والتساهل الاجتماعي والتخطيط سراً لصفقة مع الولايات المتحدة.

وغالباً ما يذكر خيار آخر أقل إثارة للخلاف هو آية الله محمود هاشمي شهرودي وهو محافظ معتدل والرئيس الحالي للهيئة القضائية الإيرانية. ويتمتع آية الله شهرودي بخبرة سياسية رفيعة ومؤهلات دينية افتقر إليها الخامنئي وهو عموماً مقبول من نظرائه المتشددين والمعتدلين على حد سواء. لكن مشكلته الأكبر التي قد لا يمكن تخطيها هي أنه وُلد وترعرع في العراق وهو بالتالي يتكلم الفارسية بلهجة عربية وهذا أمر صعب على شعب مرتبط شديد الارتباط بقوميته كالشعب الإيراني القبول به.

وبسبب غياب أي خلف محدد للخامنئي يجري الحديث أكثر فأكثر عن احتمال استبدال منصب ولاية الفقيه بمجلس شورى. وليست هذه الفكرة بالجديدة وهي طُرحت عند وفاة الخميني بما أن العديد اعتقد أن ولاية الفقيه "ثوبٌ صُمّم للخميني دون غيره". وعندما كان رئيساً للجمهورية، قال الخامنئي في احدى مقابلاته الصحفية أنه ما من فرد قادر لوحده على أن يحل محلّ الخميني في منصب الولي الفقيه، متنبئاً بدلاً من ذلك بتولي مجلس من ثلاثة أو خمسة قادة دينيين مهام الحكم.[50]

ويبقى السؤال الأبرز حول من سيتم اختياره لتأليف مجلس الشورى. علماً أنه بموجب الدستور تقع عملية الانتخاب ضمن صلاحيات مجلس الخبراء الذي يرأسه رفسنجاني والمؤلف من 86 عالم دين هم بغالبيتهم محافظون في العقد السابع من العمر.

من جهتهم، يتحدّث الإصلاحيون عن ثلاثي مؤلف من رفسنجاني وخاتمي ومهدي كرّوبي وهو عالم دين معتدل شغل منصب رئيس البرلمان وخسر بفارق بسيط لمصلحة أحمدي نجاد في الدور الأول من انتخابات الرئاسة في حزيران 2005. لكن هذا الثلاثي لن ينال موافقة المتشددين الذين سيفضلون محافظين على غرار آية الله مصباح يزدي وآية الله هاشمي شهرودي و آية الله جناتي. ولكن هؤلاء مرفوضون من المعتدلين.

وبمعزل عن صعوبة التوصل إلى توافق حول تشكيل مجلس الشورى، فإن استبدال منصب المرشد الأعلى أو الولي الفقيه بمجلس شورى أمر يعيقه حالياً دستور الجمهورية الإسلامية الذي ينص تحديداً على ضرورة أن يكون الولي الفقيه شخصاً طبيعياً. غير أن الضرورة السياسية تعلو على الدستور في الجمهورية الإسلامية فتعديل الدستور لتغيير مقتضيات الولي الفقيه هو تماماً ما مكّن الخامنئي من استلام منصب الولاية.

وفي حين قد يتصاعد الصراع على الخلافة ويزداد شراسة، فإن ضعف الخامنئي شكّل بطريقة أو بأخرى مكمن قوة الجمهورية الإسلامية؛ فقد أثبتت ولايته أن استقرار الجمهورية الإسلامية ليس رهناً بوجود قائد

---

[50] راجع إيلين سيولينو، مرايا فارسية (نيويورك، الصحافة الحرة، 2000) ص. 87.

شعبي عظيم ذي هيبة تاريخية. ولم تعد التوقعات السائدة إبان حكم الخميني، والقائلة إن وفاة القائد سيؤدي الى انهيار النظام، مطروحة في زمن الخامنئي.

استنتاجات وتداعيات على السياسات العامة

عندما يُنتقد المسؤولون الأمريكيون لعدم انخراطهم في حوار مع إيران فإنهم يجيبون أحياناً بالسؤال: "ومع من علينا التحاور في إيران؟" وفي حين قد تكون الإجابة على هذا السؤال ان المرجع في ايران لاي حوار او قرار هو آية الله الخامنئي، فإن الواقع يفيد أنه ما دام الخامنئي مرشداً أعلى فمن غير المرجح حصول نقلة نوعية في السياسة الداخلية والخارجية الإيرانية. ونظراً إلى أن اختياره قائداً استند إلى ولائه الشديد للمثل الثورية ورؤية آية الله الخميني ، فإنه من غير المرجح أن يكون الخامنئي مستعداً أو قادراً على إعادة النظر في معتقداته ومواقفه في هذه المرحلة المتقدمة من حياته.

وعلى الرغم من أن الخامنئي كان منفتحاً إزاء تطوير السياسة الخارجية الإيرانية في التعامل مع الجيران العرب وأوروبا، فإن أي مقاربة توفيقية إزاء الولايات المتحدة وأي مقاربة غير عدائية إزاء إسرائيل ستعنيان الابتعاد عن ركيزتين من الركائز الأيديولوجية للجمهورية الإسلامية. وبالنسبة إلى الخامنئي، إذا ما اتسمت الثورة الإسلامية بالتغيير الثوري فإن السنوات التي تلتها كان عنوانها الحفاظ على الوضع الجديد القائم. ولا يُعد منطق الخامنئي أيديولوجياً بحت، فكتاباته وخطاباته تشير إلى أنه يتفق مع دعاة غربيين يؤكدون أنه إذا ما انفتحت إيران على الولايات المتحدة، فإنها ستضطر إلى القيام بإصلاحات ثقافية وسياسية واقتصادية كبرى.

غير أن مركزية إيران لتحديات السياسة الخارجية التي تواجهها الولايات المتحدة وأوروبا، لاسيما في مواضيع العراق والانتشار النووي والإرهاب والطاقة والسلام العربي–الإسرائيلي وأفغانستان، تجعل من عدم الحكمة الامتناع عن الحوار مع طهران حتى وفاة الخامنئي ومجيء قائد إيراني أكثر مرونة. فهذا الأمر قد يستغرق حصوله وقتاً طويلاً. وبغية اختبار نوايا الخامنئي وشدّة آرائه تقييماً حقيقياً، لا بدّ من القيام بمحاولة حوارية تتضافر فيها الجهود لاختبارها عن كثب. ومن الأفضل ان تكون المحاولة بعيدة عن الاضواء – او حتى سرّية – بغية تلافي التدخل السلبي للمتشددين الإيرانيين المعارضين للولايات المتحدة.

غير أن القول بالحوار مع إيران هو اسهل من الفعل. إذ لم يسبق للسياسات الايرانية في الداخل والخارج أن اثارت الاعتراض الدولي الذي تلاقيه اليوم. لكن في الوقت عينه لم يسبق لإيران أن تمتعت بنفوذ إقليمي يفوق نفوذها الحالي. لذا لا بد من أن توضع أي مقاربة ناجحة للعمل مع إيران بشكل يأخذ بعين الاعتبار الدور الأساس للخامنئي في عملية صنع القرار وموقفه الشاك في نوايا الغرب:

- يجب إقناع الخامنئي بأن الولايات المتحدة مستعدة للاعتراف بشرعية الجمهورية الإسلامية ولاحترامها ويجب أن يُقنع بخطأ اعتقاده أن السياسة الأمريكية تريد تغيير النظام لا التفاوض على تغيير سلوكه.
- لن يوافق الخامنئي أبداً على اتفاق يُتوقع فيه من إيران التراجع علناً أو الإقرار بالهزيمة ولا يمكن إرغامه على التسوية عبر الضغط وحده. فإلى جانب حفظ ماء الوجه، يعتقد الخامنئي أن التسوية في وجه الضغط تأتي بنتائج سلبية لأنها مبنية على الضعف وتشجع الخصم بالتالي على المزيد من الضغط.

- وسيتطلب العمل الناجح مع إيران قناة تواصل مباشرة مع مكتب المرشد الأعلى أو مع الخامنئي بنفسه. فهو حذِر من المنافسين الداخليين ولن يتخذ أي قرار في السياسة الخارجية قد يضر بمصالحه وإن عاد بالفائدة على إيران. وليس فشل محاولات إدارة كلينتون في التقليل من شأن الخامنئي وتجاوزه والعمل مع خاتمي والإصلاحيين في العام 2000 إلا مثال على ذلك.

لا يعني العمل مع إيران مطلقاً مجرد إرضاء الخامنئي أو القبول على مضض بسلوك إيران في كل المجالات. لكن تمثل السياسة التي تقدّم خياراً واضحاً إلى طهران الأمل الأفضل للمضي قدماً مع ايران وبطريقة بناءة. ولا بد من التوضيح لطهران أن مقاربتها المتشددة الحالية لن تؤدي إلا إلى زيادة عزلة البلاد وضيقها الاقتصادي. ولن تأتي قرارات مجلس الأمن والضغوط المالية والسياسية الدولية لوحدها بتفاهم دبلوماسي مع إيران، لكنها مع ذلك أدوات ضرورية على المدى القريب لإقناع إيران أن سياستها المتشددة ايضاً لن تأتي بنتائج إيجابية.

وفي الوقت عينه لا بد لبعض العناصر البراغماتية في طهران من أن تتمكن من إقناع الخامنئي بأن سياسة إيرانية معتدلة من شأنها توليد رد غربي ايجابي. علماً أن هذه العناصر تشعر الآن بعدم قدرتها على تقديم اي دلائل واقعية لدعم هذه المقولة. وفي سياق السياسة الامريكية الحالية، لاسيما مع ذكر إدارة بوش المتكرر للخيار العسكري ضد ايران، يمكن للخامنئي بسهولة إسكات الدعوات إلى الاعتدال باعتبارها دعوات ساذجة وغير مسؤولة.

وفي حين يجب أن يكون أي حوار شاملاً في نهاية المطاف، أي ليس محدوداً بالعراق أو الملف النووي فحسب، فإن بغداد تشكل، نظراً لغياب أرضية مشتركة حول القضية النووية وتداخل المصالح في العراق، مكاناً جيداً للاستمرار في المناقشات وبناء الثقة مع أمل توسيع نطاق الحوار ليطال مع الوقت قضايا أخرى.

كما جاء سابقاً، قد لا يكون ممكناً للولايات المتحدة وإيران التوصل إلى تفاهم دبلوماسي ما دام الخامنئي قائداً للبلاد. فبعد ثلاثة عقود انغمس فيها في ثقافة "الموت لأمريكا"، قد يكون من المبالغ فيه بمكان الطلب إلى الخامنئي أن يعيد النظر في تفكيره. وصحيح أن محاولة العمل مع إيران بقيادة السيّد الخامنئي قد لا تعدو "المحاولة" وتتطلب قدراً عالياً من الحكمة والصبر من غير فرص مضمونة للنجاح؛ غير أن المؤكَّد والمعروف هو أن أي مقاربة إزاء إيران ترمي إلى تجاهل السيّد الخامنئي وتجاوزه والتقليل من أهميته محكومة بالفشل لا محالة.

حول المؤلف

كريم سجدبور، انضم كباحث إلى مؤسسة كارنيغي، بعد أن عمل طوال أربعة أعوام بصفة محلل رئيسي في القضايا الإيرانية في مجموعة الأزمات الدولية(International Crisis Group) وكان يعمل من طهران وواشنطن. ويعدّ سجدبور من أبرز الباحثين في الشؤون الإيرانية وهو أجرى عشرات المقابلات مع مسؤولين إيرانيين رفيعي المستوى ومئات المقابلات مع مثقفين ورجال دين ومنشقين وبرلمانيين ورجال أعمال وطلاب وناشطين وشباب وغيرهم في إيران. له مداخلات دائمة عبر قناة هيئة الإذاعة البريطانية، "بي بي سي"، التلفزيونية وإذاعتها وقناة "سي أن أن" الإخبارية والإذاعة الامريكية الوطنية العامة وبرنامج "نيوز آور" مع جيم لهرير. كما صدرت له مقالات عدة في صحف واشنطن بوست ونيو يورك تايمز وانترناشنول هيرالد تريبيون ونيو ريبوبلك.

وغالباً ما يُدعى سجدبور لإطلاع المسؤولين الأمريكيين والأوربيين على مستجدات الشرق الأوسط، وهو دُعي إلى الإدلاء بشهادته أمام لجنة العلاقات الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ، وسبق له أن حاضر في جامعات هارفرد وبرينستون وستانفورد وتكلّم أمام مجلس العلاقات الخارجية ومؤسسة المجتمع الآسيوي. كما تمت تسمية سجدبور قائداً عالمياً شاباً من المنتدى الاقتصادي العالمي في دافوس في سويسرا وهو حائز جوائز أكاديمية عديدة منها منحة فولبرايت. أمضى سجدبور فترات من حياته في كلّ من أمريكا اللاتينية وأوروبا والشرق الأوسط.

حول مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي

مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي: إن مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي هي منظمة خاصة لا تتوخى الربح وترمي إلى توثيق عرى التعاون بين الأمم وتعزيز التزام الولايات المتحدة الفعال والدولي. وتهدف مؤسسة كارنيغي الحيادية التي تأسست في العام 1910 إلى تحقيق نتائج عملية. ويضع شركاء المؤسسة الخيرية مقاربات سياسية جديدة من خلال البحث والنشر والاجتماع وأحياناً عبر إنشاء شبكات دولية ومؤسسات جديدة. وتمتد اهتماماتهم لتشمل مناطق جغرافية واسعة وعلاقات بين الحكومات والأعمال والمنظمات الدولية والمجتمع المدني مع التركيز على القوى الاقتصادية والسياسية والتكنولوجية التي تقود زمام التغيير العالمي.
واستناداً إلى التأسيس الناجح الذي شهده مركز كارنيغي في موسكو أضافت المؤسسة الفكرية مراكز في بيجينغ وبيروت وبروكسل إلى مكاتبها الموجودة أصلاً في واشنطن وموسكو انطلاقاً من فكرتها الريادية القائلة بأن أي لجنة استشارية مهمتها المساهمة في الأمن والاستقرار والازدهار في العالم تستدعي في صميم عملياتها وجوداً دولياً دائماً ونظرة متعددة الجنسيات.
وتجدر الإشارة إلى أن المؤسسة تنشر مجلة "فورن بوليسي" (أي السياسة الخارجية) التي تعد من المجلات الريادية في العالم في مجال السياسة والاقتصاد الدوليين والتي تصل إلى قراء في أكثر من 120 بلداً وبلغات عدة.